رحلات بين النفس والمكان

د.هادي التونسي

سفير سابق بوزارة الخارجية المصرية

ومكتشف العلاج الفوري لتطوير الشخصية

رسالة من العالم الآخر

عزيزي الإنسان,,,ربما لا تحتاج لكثير من التبصر

لتري العالم من حولك.تري علي شاشة تلفازك ,وتقرأ علي أوراق صحيفتك أخبار المجاعات و الحروب و الجرائم و التنافس بلا رحمة,توخز الضمير ,و تخجل مشاعر التضامن الإنساني,و لا تراعي المحبة الكامنة في نفوس البشر.ثم ندرك اننا لا نستطيع ان نتوحد مع معاناة الضحايا بألم فوق التحمل,دون نتيجة يتطلبها عمل فعال,فنسرع لننعزل في بوتقة فرديتنا و مصالحنا الذاتية,في تعقل ظاهري يتجاهل ان بعضا منا –و ربما نحن–سيكون يوما ما لسبب ما و بشكل ما أحد ضحايا الشر أو الظلم أو القهر أو القدر,فيحتاج الي ما أنكرناه من مشاركة و محبة وتضامن.

صديقي الإنسان,,,كم منا يدرك و يحب ما يجمع البشر بشعوبهم و أجناسهم بأكثر مما يلاحظ إختلاف مصالحهم وثقافاتهم و عقائدهم؟و كم منا يري في الإختلاف رحمة و خبرة و ثراء,فيتعلم من عدوه,و يرحم غريمه,و يحترم إختلاف السبل و المشارب في مدرسة الحياة,لتتضح المحبة روحه الي النقاء و الطهارة و صفاء الرؤية لحقيقة الوجود؟ و كم منا يسعي في معاملاته أن يخرج الجميع رابحين ليوقف عجلة الأسي و المخاوف و الأحقاد,و ينشر الخير و التفاؤل بين البشر؟

أخي الإنسان,,,هل خبرت العمل و الخلق بلا كلل بدافع الحب المتجرد؟هل أدركت –إن فعلت ذلك–أنك تعيش سعادتك,و تطهر روحك ,و تشفي جسدك؟هل تساءلت لماذا يضحي أفراد وجنود بحياتهم من أجل أخرين,و يضع البعض الصالح العام قبل مكاسبهم الشخصية؟و إذا ما كانت تلك الخبرات –حتي لو كانت أحيانا وقتية أو إستثنائية–إعترافا بأن المغزي هو الأهم حتي لو كان في مقابل الحياة ذاتها ,و أن المعاناة معلم للروح و النفس؟هل تعرف أن هؤلاء مغرمون باللحظات البلورية,التي تتملك النفس ,فتشيع فيها السكينة و التجرد,فيمتثل الجسد و العقل لأوامر الروح المتواصلة المتوحدة؟ رفيقي الإنسان في رحلة الحياة,,يقولون تارة أن الحب يصنع المعجزات,و تارة أخري أن زمن المعجزات إنتهي.فإذا كانت المقولتان صحيحتين,فهل يعنون بذلك أن زمن الحب إنقضي؟ذلك في ظني إختيار فردي,فالحياة من أجل المغزي و الجهد الخلاق بدافع الحب تدفع برؤية الحلم من خلال التفاني و الإنغماس الي تحقيق المعجزات علي أرض الواقع.و الروح

المتجردة المتواصلة المتوحدة تحقق التناغم مع الجسد و العقل,و تفتح للفرحة الف باب للتحقق من خلال الأخرين و التواصل المحب المثمر معهم.فإذا أمنت بذلك,فلنبدأ معا بالحلم بعالم أفضل من المساواة و التضامن و التناغم,يقوده بنزاهة ساسة,يعلنون الحقيقة,و يحكمون بشفافية.تعال نحلم بعالم الوفرة و النقاء و الحرية للجميع,عالم السعادة و السلام و المحبة.تعال نتخيله معا بكل جوارحنا و نعمل لأجله ما في وسعنا,فتطهر الفرد و الجماعة قاطرة لتطهر المجموع ,تعال نحقق العالم الأخر ,عالم الأحلام ,علي أرض الواقع.

مع الآخر

– من هو الآخر ؟ عالم مثير بذاته ، حافل بالغموض والأسرار وربما التناقضات ، ضرورة ومخاطر ، وآمال و احباطات ، وبهجة وشقاء ، الحياة صعبة معه ، ومستحيلة بدونه ، علاقات مستقرة أو تبدو كذلك ، وأخرى مؤقتة ، بعضها نسعى إليها وأخرى نتجنبها .

– هل الآخر هو من نراه الأقل شأناً فنندفع زيفاً الى الغرور ، وظلماً إلى التعالي والشك والعدوان ؟ . أم من يشاركنا مشاعر الدونية ، فنرى العالم كئيباً وأفاقه مظلمة و حال كل منا بائساً وحيداً ؟. هل الآخر هو غالباً الأفضل ، الأكثر ذكاء وقوة وحظاً ، فنفقد الثقة بالنفس ونشعر بالإحباط واليأس والشقاء ؟. أم هو غالباً من نراه واقعياً سوياً وسعيداً وجيداً مثلنا؟.

– فى كل الأحوال نسعى للاكتشاف والفهم لنحقق أهدافنا معه ، لندافع عن أنفسنا ضده ، لنتمتع بالتواصل معه ، أو لنعرف كيف نتجنبه أو نحيده ، فالإدراك قوة وضرورة لرسم معالم الطريق وتفاصيل الخطة والتعرف على محاذير التعامل ومخاطر التورط . ولكن الفهم يتطلب تجرداً وحياداً ؛ جهداً نزيهاً للبحث عن الحقيقة ، وشجاعة قد تصاحب ألماً عندما نعلم عن أنفسنا أوعنه ما أراحنا تجاهله أو إنكاره أو التقليل من شأنه .

– إذا تطلب الفهم خبرة ، فالخبرة جمعتها المعاناة وربما احباطات الفشل ؛ فإذا كنا حديثي العهد بالحياة والآخرين لا يبقى أمامنا إلا صدق الإحساس والحدس ، وقد نضطر للمغامرة اذا لم نمتلك رجاحة العقل وصدق البصيرة وعمق الرؤية، وإلا لأسقطنا توتراتنا وأخطاءنا عليه اذا ما أراحنا تجاهلها أو نكرانها.

– نعيش فى عالم ملئ بالمعاملات والمصالح المتشابكة ونحتاج الى الفهم وتلمس الطريق ، فما هو الحل ؟ .

– افهم نفسك . تمتع باكتشاف عيوبك وأخطاءك. حول ألم الاعتراف بالحق إلى فضيلة ممارسة الشجاعة والنقد الذاتي والى متعة التعلم لاكتساب القوة والمنعة وتصحيح الأخطاء.

– إذا رأيت نفسك على حقيقتها فما أسهل أن ترى الآخر بموضوعية ، المعلومة الصحيحة عن الآخر قوة تؤدى لكسبه وتحقيق المصالح .

– إذا رأيت نفسك بعمق سيمتلئ قلبك بالمحبة والتوافق والتسامح والغفران ، ستدرك أنه بدلاً من الإدانة والغضب تستطيع أن تكسب القلوب وتبحث عن الجوهر وتمد يد العون بنفس يسكنها

اليقين والسلام والمحبة .

– بنفس كهذه تستطيع العيش من خلال الآخر ، فتشعر بأنك معه جزء من الكل الواحد، يؤلمك ألمه وتفرحك سعادته . تخدمه فيسعدك عطاؤك . تستطيع اذن أن تعيش وتتعامل وتتصادق بقلب مفتوح وعقل واع وروح حاضرة ومتجلية ، يملأون حياتك بعمق الإحساس ونبل المقصد وصفاء السريرة .

– حياة كهذه تتسم بعمق الادراك وروعة الاحساس وبعد الرؤية وصدق الوجدان، تكون فيها اللحظة عالماً بذاتها وزمناً مثيراً حافلاً ، ويصبح الوجود قيمة ونشوة، والتناغم مع الآخر والكائنات والطبيعة وحقائق الحياة نتيجة تلقائية وجائزة كبرى .

فهنيئاً لك بالآخر ان عرفت الطريق ...

ماذا علمني ؟

الكثير، و بالفعل أهم ما أسعدني، و لكن ربما كان ذلك أخر دروسه.

لم يصبح في حياتي الكثير ممن يمكن أن يستمعوا الي بشغف حاني، ممن يفهمونني بعمق، و ممن يشاركونني دوما بالوجدان بعيدا عن التحفظ، و ممن يحبونني دون شروط، و ممن يعطونني بلا حدود، و لكنه كان كذلك.

خالطت من عرفت فيهم النبل و العطاء، و علموني. بعضهم قضي نحبه، و بعضهم ربما لم يعودوا يتذكرونني، أو أخطر لهم علي بال. بعضهم باعدت بيننا الأيام، و لم يتبق من هؤلاء إلا دروس الحياة و الذكري الملهمة.

لكن ذلك الصديق ظل معي حتي وفاته 25 عاما، يتوق أن يراني دون بوح، و كل ما أراه منه عطاء دافئ، محب حنون، مستوعب واع، رقيق مطمئن.

أحيانا كنت أسائل نفسي ماذا يأخذ مني، أو ماذا يمكنني أن أعطيه جزاء، و لماذا ظل كل تلك السنين ملبيا إتصالاتي، و مجيبا علي تساؤلاتي بكرم، دونما تحفظ، و دونما إشتراط، بالشفقة بالرحمة، بجزيل وعي، و حس و إدراك.

كان مرأة نفسي، حينما كنت وحيدا حائرا، و كان نظارتي الي المستقبل حينما كنت خائفا يائسا، و كان رفيق الطريق الحاني المتزن نحو السكينة و الصفاء و التلقائية.

في أحلك الأوقات كان الصدر الحاني و الحب الواعي العميق الملتحم بالواقع.

لم أكن أدري لماذا يتعفف عن ذكر متاعبه و إن ثقلت. و لماذا عندما أريد أن أشارك و أعطي فألح متسائلا يلمح مطمئنا إلي أقصي ما يعذب، إرضاء و تأدبا، دونما طلب أو إنتظار.

أحيانا تساءلت هل خلق الله حلقة وسط بين البشر و الملائكة، أجساد بشر و أرواح ملائكة، ملائكة يعيشون بيننا، و يرون خطايانا دون أن يتلوثوا بها، ملائكة المهام الصعبة الذين يتركون عالمهم السامي، و يعيشون بيننا، يصلحوننا، لكن يبقون علي نقاءهم. و لماذا ظهروا في حياتي، فهل من رجاء ؟ و هل لدي أمل ؟

فماذا كان أخر درس ؟ لأشهر طويلة علمت بعد تساؤل ملح أن لديه مرضا خبيثا، و سنه لا يسمح بالتدخل الجراحي. عاش بالمرض، و تعايش، و صحته تتأكل، و هو يعرف أنه سيموت به. و كنت أهاتفه، و ألقاه كلما عدت من سفر، و كان جسمه يموت شيئا فشيئا، لكن

روحه شامخة، دوما مطمئنة، دوما حانية، دوما شغوفة، منغمسة فيما أقوله، و أشعر به، و كأن ليس به مرض أو ألم أو إعاقة، و كأنه قبل بموت أت، و ليس له فيه خيار. قبل وجدانيا القبول الكامل المعاش المسئول المطمئن المرتاح.

أسألة وجلا عن خطورة الوضع، مدركا قرب الأجل، فيطمئنني حانيا مشفقا أن هناك من يعيشون به طويلا، و ربما في قرارة نفسه كان يعرف غير ذلك.

ماذا تعلمت ؟ هل تعلمت أن أصاحب الموت بروح مطمئنة متقبلة مرتاحة، تمتلئ حبا و حنانا و عطاء ؟ هل تعلمت مجددا ألا أتعلق بشئ، أو بشخص، إذا كنت لن أتعلق بالحياة ذاتها ؟ لا أدري، ففي أخطر ما مررت به من تدخلات جراحية كانت نتيجة الموت إحتمالا و ليست يقينا، لكنه كان علي الأقل قدوة حتي أخر لحظات حياته. ربما كان ذلك أخر دروسه و أصعبها، و أكثر ما أصبحت أحتاجه، فعقدة إفتقاد الخلود و خشية الموت من أعمق و أصعب ما يعتمل لاوعيا في النفس البشرية جمعاء، قدوة لسيادة العقل و الروح المتحررة الراضية من سجن الجسد المتهالك، قدوة تعني أن المستحيل ليس واقعا إلا لو كان فقدان إرادة الحلم و التحقيق.

ملائكة في حياتنا

هل تعاملت، إن لم تكن عاشرت، مع أشخاص مثل هؤلاء؟

أولا. أحد الوالدين، أو الأجداد كان مثالا للحنان و الرحمة و العطف و الرعاية معا بأمن و سكينة، و كان لك ملجأ و معينا في كل أوقات الشدائد و اليأس، سواء فهمت أعماق و دوافع هذا الشخص أم لا، و سواء منحته ما يستحق من فهم و مشاركة و إرضاء و إعجاب قبل أن يرحل عن دنيانا أم لا.

ثانيا. أحد الأبناء أو الأقارب الشباب الذي تلمست فيه تميزا و نضجا غير مألوف لسنه، و ربما تكون قد رعيته أو ربيته قدر الإستطاعة، و تعجبت أو فرحت لملكات من الحس و الحكمة و الإبداع جلبت له النجاح الباهر و حب الجميع، و لكنك مع ما منحته لم تدرك أن أعز ما اراده طفلا هو وقتك، فإكتفيت بالرعاية و المحبة، و نظمت وقتك و فق مقتضيات مصالحك و واجباتك ، و ليس إحتياجاته هو قبل أن يشب و يهاجر لبلد أخر، أو ينشغل بحياته بعيدا عنك، و يضن عليك بوقته و أنت كهل، مثلما تعاملت معه و هو طفل.

ثالثا. أحد الأصدقاء أو الأقارب أو الزملاء الكبار، الذي ربما تكون لاحظت سكينته و حكمته و صفاءه و عطاءه في صمت، و لكنك لم تعتن بإستكشاف أعماقه و دوافعه بموضوعية محايدة، بل ربما كانت لك أحكام مسبقة' لا تري في الأخر ما هو أكثر و أعمق و أكبر مما لديك، أو صنعت منه نموذجا غير قابل للتكرار، و مررت علي شأنه مرور الكرام، فتركته وحيدا، لا ينتظر فهما و لا تقديرا، يمنح في تجرد، و يخدم دون مقابل، و يعيش قدوة حتي و إن لم يفهمه و يتبعه إلا قلائل.

هل أدركت بعد فوات الأوان حجم ما فقدته من الدنيا إن لم تعش و تتمثل نبل هؤلاء، و إن لم تتمتع بعمق إدراكهم و رفاهة إحساسهم، و إن لم تتعلم مما لديهم، و تطبقه في حياتك، فتفهم مثلما فهموا، و تحب مثلما أحبوا، و تمنح مثلما منحوا و أعطوك ؟ فجانب من قيمة العلم و الدروس و الحكمة أن تعرفه في أقرب وقت، لتطبقه حينما تحتاجه، و تتمتع بجدواه لأطول فترة من حياتك. و جانب من العدل أن تعطي لهؤلاء ما يستحقونه من وقت و تقدير و مشاركة و خدمة و رعاية ،لترضي عن نفسك و عن مسار حياتك، و تتقبل الحكمة الإلهية إن إختارت أن تبعدهم عن دنياك لسبب أو لأخر.

ملائكة هم أم لا أمر متروك لإدراكك و رأيك، لكنهم بالقطع إكتسبوا صفات تعدت المعتاد مما نراه لدي البشر، و وضعهم القدر في طريقك لحكمة، قد ندركها أم لا، فهم أعطوا ، و ألهموا، و أناروا طريق الخير و الكمال، و أثاروا لدينا تساؤلات عن القدوة الصامتة، تدفع للتبصر و النضج، إن تفتحت عقولنا، و تعاملنا بقلوبنا، و صدقنا الحدس فينا، و تواضعنا لحيرة الإستكشاف و صبر اليقين، لندرك و نشعر ما لم نتعوده، و لم يكن في الحسبان، و لنسلك الطريق الذي اناروه لحكمة إلهية و دوافع ملائكية.

وجود هؤلاء في حياتك مشعل علي طريق الحب الإلهي، فكيف يكون تقديرك و عرفانك للمنحة الإلهية كاملا يدفعك لتقدير صفات جلاله و التسليم بحكمة قدره إن لم تدرك صفات من نفخ فيهم من روحه، و إصطفاهم بما هو أنبل و أعمق من المألوف لدي البشر؟ و كيف تسلم بقدر الحياة و الموت لك إن لم تسلم به لمن رحلوا عن دنيانا، و أحببتهم، فرحيلهم يذكرك أن الحياة منحة مؤقتة، و إن الحاضر كنز تنهل منه ما إستطعت، لتكون نوعية حياتك و مشاعرك و أقوالك و أعمالك هي أفضل الممكن ؟ فهل تشعر بالأسي لإن هؤلاء رحلوا عنا في دنيا هي زائلة بطبعها، أم تشكر ربك أن وضع هؤلاء في طريقك ؟ و هل رحل حقا من إختارهم الله الي جواره، أم ما زالوا يعيشون في عقلك و مشاعرك، في روحك و وجدانك.

هذا سؤال تجيب عليه بنفسك و إختيارك.

زعيم الطائفة

من يتذكر تشارلز مانسون الذي كان زعيما للهيبيز في الستينات و السبعينات، والمسجون حاليا بسبب الاشتراك في تحريض اتباعه علي سلسلة من عمليات القتل بعد تخفيض الحكم من الاعدام الي السجن المؤبد؟

هذا الرجل امريكي، عمره حاليا 80 عاما، و مع ذلك فتاة عمرها 26 سنة مهووسة به بعد 9 سنوات دفاع عنه اعلنت في نوفمبر 2014 انها ستتزوجه خلال شهر. هذا الرجل ولد كطفل غير شرعي ، والدته المدمنة الباغية باعته بثمن مشروب كحولي، و كان و عمره 10 سنوت يتقاضي الاجرة من الزبائن. ثم دخل السجن عدة مرات بتهم السرقة و الاعتداء الجنسي و القوادة، حتي اقام مع سيدة و جلب الي منزلها 18 سيدة اخري، ليكون مجموعة عقائدية تعتقد افكار الهيبيز عن الحب و السلام و الجنس المشاع و الانعزال عن المجتمع و رفضه و استعمال الملابس الملونة و اطالة الشعور و تجمعات الموسيقي. و هذه المجموعة استخدمها في عمليات القتل. لكن كيف استطاع التأثير علي هؤلاء بغسل ادمغتهم ؟ نشأة تشارلز مانسون المحرومة المنحرفة علمته الرغبة في امتلاك القوة و السيطرة و معاداة المجتمع و اللامبالاة بمشاعر الاخرين و رفض قيم المجتمع الراسمالي الذي لم يعطه معيشة انسانية فكان السلوك الاجرامي نتيجة طبيعية.

تعلم مانسون معتقدات جماعات مذهبية تخلط المفاهيم الدينية، بحيث تنحدر القيم من امتلاك القوة الي التجبر و الاجرام، و من الرغبة في المتعة الي الانحراف بتفسيرات تدمج الشيطان في الدين و القيامة و تبرر تصرفاته، و تعلم تقنيات و معتقدات الساينتولوجي التي تدعي الرغبة في الكمال بتحرير الشخصية بالتنويم من عقد الماضي، و حيث ان تلك المعتقدات تكون طوائف تسيطر علي اتباعها ، بان تصور لهم انها تطهرهم من ذنوب الماضي و تخضعهم لنظامها و قيادتها بادعاء التميز عن سائر البشر و السعي لهدف يدعون نبله، مثلما حدث مع بعض تيارات التأسلم لدينا، فقد كون من ذلك خلطته الشريرة، وامكن له غسل ادمغة اكاديميين بطرق اضافية منها البرمجة العصبية اللغوية و لغة الجسد، مثلما استطاع مانسون في محبسه و مع سنه المتقدم غسل دماغ تلك الشابة التي اعلنت انه سيتزوجها.

فان كنت تعتقد ان اجراءات التنمية و تحسين الثقافة و التعليم و الاعلام و الخطاب الديني ستقضي نهائيا علي الطوائف فتذكر مانسون و جيم جونز الذي اقنع 900 من اتباعه بالانتحار الجماعي و غيرهم من الطوائف التي تحتاج علاجا نفسيا و مجتمعيا، خاصة انهم في امريكا لا يعانون مثلنا من الامية و الفقر و تدهور التعليم و الثقافة، و مع ذلك هناك من تم غسل ادمغتهم.

ماريا و جونتر، قصة حب و قدر

= ماريا سيدة جميلة فاتنة مولودة لأسرة ثرية، فوالدها شخصية عسكرية ذات خبرة دولية، و والدتها شخصية مسيطرة، لكن كلاهما علي حد علمه رباها بصرامة لتصبح مدعاة للفخر. و لكن هل يضمن ذلك لفتاة حريتها و سعادتها ؟

= جونتر جنتلمان و شخصية قيادية في عمله كمعماري. والداه كانا بالغي الحنان، فمنحا الدفء و الأمان و الحب و الرعاية المخلصة لأبنائهما الثلاث بشكل مثالي، يصعب ان يتوفر في أسر أخري. جونتر يشعر بسعادة بمفرده، لكن هل يجد مثل تلك العلاقات في زواج ؟

أمران، أو قل حلمين، كانا في مخيلة الشابين حينما التقيا لأول مرة. كانت قد بلغت السابعة عشر، و كان يكبرها بأربعة أعوام عندما تقابلا أثناء ممارسة الألعاب المائية في بحيرة بجانب منزل الأسرتين. فهل كان الابجار بالقوارب الشراعية و السيطرة علي تقلبات الرياح رمزا لبحثهما عن الحرية و الإنجاز ؟

= حاول جونتر المعجب إظهار عواطفه بإتزانه المعهود، لكن ماريا الفاتنة كانت تريد ما هو أكثر من محب حساس، بل أرادت شريكا يشع ذلك النوع من القوة الذي تطلعت أن تجده في نفسها حينما تمردت علي الأم المسيطرة، فكيف كان لها في ذلك السن أن تميز بين رجل يتظاهر بالقوة لكنه غير متاح عاطفيا، و أخر يتمتع بالقوة الداخلية، حين كان حولها معجبون كثر، و كانت الحياة واعدة ؟

= فماذا كانت ماريا تتوقع من شاب مخلص لو لم تلق بادراته الحانية قبولا مرتين؟ فماريا الواثقة من جاذبيتها كانت تأمل أن يلاحقها بعزيمة واثقة ترضي غرورها و تؤكد انها المختارة. لكنه لم يجتز الاختبار.

= جونتر المحبط ، مفضلا سكينته، وجد أنه من الأوفق أن يلجأ للزواج التقليدي، لكن الاطفال و العلاقة الزوجية السطحية لم يكونوا كافيين لإشباع إيمانه بتحقيق الحلم، فحاول الزواج ثانية بإمرأة جادة أحبها، و أنجب منها قبل ان تخنق روحه الحرة المتطلعة للعدل و الإحترام بشخصيتها الطاغية غير المتسامحة، فكان الشقاء و الصراع كفيلين بتدمير معبد الحب ، فهل يفقد الأمل ؟

=و ماريا في إعادة لاواعية للنمط الأبوي تزوجت و أنجبت من شخص بادي القوة، لكنه أناني غير متسامح، ثم إنغمست بعد الطلاق في علاقة لسنوات مع طبيب شهير تجنب الزواج منها

اثرا راحته الشخصية. فهل كان لظاهر القوة في هذين الشريكين ان يفي بإحتياجها و بحقها العاطفي أن تكون محل حب و رعاية حقيقيين ؟

= الي البحيرة حيث كان اللقاء الأول، عاد جونتر مهندسا بارزا يشتري ارض بناء، فهل كان إختيار المكان رغبة لاواعية في إستعادة ذكريات الأسرة الدافئة التي افتقدها في كل علاقاته الزوجية ؟ بل أكثر من ذلك هل كان الاختيار إتاحة لفرصة ما ربما يجد خلالها جميلته ماريا ؟ هل كان يكتب قدره بإصراره علي أن اليوتوبيا ليست مستحيلة ؟

= ربما كان أمرا هينا منذ ثلاثين عاما أن يتخليا عن علاقة عاطفية، ربما لو تواعدا لم تكن العلاقة لتتحمل رغباتهما المتصارعة ، و لكن ماذا عنهما الأن و قد جربا البدائل ، و إستوعبا الدروس، و فهما حقيقة ما يريدانه ؟

= أدركت ماريا أن القوة الحقيقية داخلية، فبعيدا عن الإحتياج الخائف للتحكم في الاخرين و عن الأشخاص الأنانيين المنكفئين علي ذواتهم ببخل عاطفي، هي تحتاج شريكا محبا راعيا هادئا مستقرا، و ليس شخصا سطحيا مدعيا القوة.

= و جونتر الأن كشريك مناسب يحتاج ان يحقق حلما طال انتظاره، و أن يتمتع بمشاركة الحياة مع شريكة تلقائية تتذوق جمال الدنيا برقي الاسلوب، لتحيي الطفل داخله، و تضيف الحيوية و المرح لطبيعته المثالية الانعزالية.

= فكلاهما إذن يحتاج الأخر. فهل كان القدر ارحم حينما لم يتزوجا منذ البداية ؟ هل يستحق الأمر مع تقدم السن أن يستمعا الي نداء القلب بملاحقة الحلم الجارف ؟ هل حقا فات وقت أن نحلم حينما يتقدم العمر؟

هوجو

هو ليس مثل هؤلاء الذين صادفتهم علي مسارات الدراجات في الطرق الريفية الاوروبية ,يركبونها في جماعات لمسافات مألوفة في نهاية الاسبوع ,يمضون في طريقهم بنظرات منهمكة في المسار , رياضة و ليست تواصلا الا فيما ندر داخل المجموعة ,فقد كان تائها وحيدا فوق دراجة تحمل معدات التخييم و الطبخ مع بعض المشروبات و المعلبات ,و استوقفني للاستفسار عن الطريق. هوجو في حوالي الخمسين من عمره ,ممتلئ القوام ,اشرت اليه الي اقرب مدينة علي بعد قرابة العشرين كيلومترا ,ففاجأني بانه يسأل علي طول المسافة التي تفصلنا عن العاصمة المجرية ,و التي اعرب عن عزمه التوجه اليها حتي بعد ان ابلغته انها تبعد اكثر من مائتي كيلومترا ..زادت دهشتي عندما علمت انه قادم من جمهورية التشيك عبر المانيا و النمسا متتبعا نهر الدانوب حتي البحر الاسود .كان هوجو مرحا متواصلا بروح معنوية عالية كمن تلقاه في حفلة و ليس في رياضة عابرة للحدود ,و هو ما ضاعف فضولي ,الذي بدأ بملاحظة الدراجة المتعددة السرعات ..هو يقول انه مارس تلك الرياضة بزيادة المسافات تدريجيا في البداية محافظة علي الصحة ,و تطور به الامر ليجد انه بدأ يزور المدن القريبة في موطنه بجمهورية التشيك ,و تطورت احلامه للقيام بسياحة رخيصة في دول الاتحاد الاوروبي التي لا تفصلها حدود ,فهو محب للطبيعة ,يشعر بامان داخل خيمته ليلا ,حتي لو كانت خارج مناطق التخييم المخدومة ,يطهي طعامه بنفسه بين الاشجار ,يأنس لنفسه فلا يحتاج رفقاء,بل يتمتع بالاشياء البسيطة حوله ,يشارك الطيور غناءها تارة ,و يلاحظ سلوك حيوانات الغابة الصغيرة تارة اخري ,فهو يجد اناسا طيبين و شمسا في كل مكان ,طالما اختار اوقات الربيع المعتدلة للسفر .اعد نفسه بدراسة الطريق قبل الرحلة و تعلم الاصلاحات التي قد تحتاجها الدراجة فجأة وضعا في الاعتبار طول المسافة .يراعي ان يبدأ رحلته مع اول النهار يوميا ,ليستريح ليلا او ليتسامر في مقهي شعبي في قري الطريق ,و احيانا ما اقام صداقات مع من تعرف عليهم و بقي علي تواصل معهم.

أكبرت في هوجو روحه العالية رغم المشقة ,انه منفتح علي الطبيعة و الناس الذين يأنسون اليه مثلما يأنس لنفسه ,انه يحتاج قليلا و يتمتع كثيرا ,انه حر طليق محب للحياة و الطبيعة و الكائنات , يتواصل و يندمج , و يكتسب المعرفة و الحكمة بالتجربة الذاتية ,و ينبذ الاستسهال و الراحة الجسمانية بحثا عن راحة النفس و ثراء الروح و صفائها .هو شخص سعيد بطبعه و نفسيته ,لكنه

يجد للسعادة ابوابا بوعيه اليقظ و حسه المتجول المرفه ,و يثبت لنا من جديد ان بامكاننا ان نصنع دنيانا بإيجابية افكارنا مهما كانت الظروف المحيطة.

علاقات ضائعة

– هل مرت بذاكرتك تجربة أو قصة سمعتها عن امرأة تمتلك الجمال والذكاء والقوة ؛ قوة العزيمة وقوة المبدأ إن أرادت ، ثم اختارت أن تتخلى عن التماسك والمنطق والكرامة لتخضع لرجل فاشل مرتزق محبط ضائع ؛ انحرف عن الطريق القويم إلى الإدمان ، ولم تسعفه مبادئ أو صلابة ليستطيع أن يعيش فى مجتمعه منتجاً بعلاقات اجتماعية سوية عادلة مبنية على الاحترام والمساواة.

– هل شعرت بأسف لهذه المرأة ، وقد أهدرت مواهبها وحريتها ، وأنت تراها تنزلق الى عالم الشريك الضائع لتخضع وتستسلم ، فتفقد قرارها وآمالها وطموحها ومبادئها وسعادتها شيئاً فشيئاً ، ثم يصبح البؤس مصيراً ، والكأس صديقاً ، والضمير ألماً ، والتنازل عادة ، والضياع قدراً ؟

– هل أحسست بحسرة لو تخيلت ماكان يمكن لهذه المرأة لو عاشت حياة لائقة تتمتع فيها بأصدقاء أسوياء وعلاقات محترمة ناضجة ،بناءة وصادقة ، تحقق الآمال والسعادة ، وتكفل للمرأة التوافق النفسي والتمتع بثمار مواهبها في عمل منتج، حياة تجلب اليها تقدير واحترام الآخرين ؛ الاحترام للسلوك والعمل ، والتقدير للتماسك والجودة والسمو ؟

واذا قارنت الأمر الواقع بالاختيار الممكن ، هل تعجبت لتناقض الواقع مع إمكانيات المرأة وذكائها والبديهيات ؟

– كثيرة هى الأسباب والمقدمات ، سواء كانت أسرة مفككة فى عائلة ثرية ومفسدة أو بيئة اجتماعية محدودة الثقافة والطموح والمبادئ والنجاح ؛ خلفية اجتماعية لاتعلم المبالاة ، ولا تمنح الحب ، ولاتضفى على الحياة مغزى يستحق الجهد ، ولا توفر للمرأة القدوة الصالحة الصلبة ؛ فلا تأخذ المبدأ جداً ، ولا يحقق النجاح مجداُ ، ولاتصبح السعادة حقاً يكون الاجتهاد طريقه . هي خلفية اجتماعية واسرية لا تشعر المرأة بقيمتها وجدارتها ، فلا تدرك قيمة صدق أو جودة أى شريك جاد حتى وان منحتها إياها حياة ، قد لا تعرف هى حق قيمتها فى الأساس .

– تدفع الحاجة للحب ، وقلة الثقة والجدارة تلك المرأة الى اختيار خاطئ يبرر احباطات الماضي

ومشاعر الخجل والذنب ، ويكفل استمرارها . فاذا كانت النساء منذ ما قبل التاريخ تسعى لرجل قوى واثق يكفل لها الحماية ويشعرها بالإعجاب ،ويقدر على كبح جماح احتياجه ونزواته ، فلن تواجه تلك المرأة مشكلة فى الاختيار الخاطئ ، بل وستراه ناجحاً . فكيف ؟.

– فى عالم الرجال هناك من يصطنعون القوة والثقة والحب والحنان ؛ هناك من يستطيعون السيطرة للإشعار بالقوة ؛ السيطرة على الشريك أو افتعالها على النفس . فاذا كانت المبادئ والاستجابة الانفعالية للرجل سطحية ، فلا بأس من اظهار إمكان التخلي عن المرأة فى أى وقت لاشعارها بقوته واحتياجها ، ولا صعوبة فى افتعال الغضب الجارف ، ولاندم على فقدان شراكة لم تكن يوماً عميقة صادقة الإحساس ، فلا يكلف الهجر عناءً ، بل يثبت استمرار مسلسل الضياع .

– فى عالم الرجال هناك من يفتعلون الغزل ويتكلفون المشاعر والمواقف ، فيمارسون مناورات الخداع العاطفي لكسب معركة السيطرة ، هناك من لا يأخذون المرأة جداً ولكن يظهرون الاحترام والإعجاب والعطف . يدركون نقاط الضعف ،يتسللون من خلالها ويتحكمون إن استطاعوا حتى ولو بالقسوة والإذلال ، ، بل يشعرهم التحكم بنجاح لم ينالوه فى عمل أو علاقات اجتماعية وبثقة عن غير استحقاق .

– فى عالم الرجال الضائعة هناك من يخلقون لدى المرأة الامتثال من خلال الإدمان والإذلال والانسياق إلى صداقات وممارسات لا أخلاقية ، فتنهار كرامة المرأة وتتهاوى مبادئها وتخالجها مشاعر الدونية واليأس أو العار والذنب ، فلا تتصور منها فكاكاً ، ويكون الاستمرار استسهالا وتبريراً والضياع قدراً .

مونيكا

السادسة صباحا,و البرد يخترق عظامي في يوم يقال انه ربيعي في انتظار حافلة,تنقل المجموعة السياحية من فيينا, لنبيت في شمال ايطاليا بعد أربع عشرة ساعة.لم أستطع أن ارسم علي الوجه ملامح الود,إذ إضطررت أن أقطع ساعات نومي المعتادة قبلها بثلاث ساعات لألتزم بميعاد التلاقي.لكن وجهي المقتضب لم يمنع تلك السيدة النحيلة ذات الإبتسامة المشرقة من أن تقترب و تبدأ الحديث بإسترخاء,كما لو كنا نحتسي قدحا من الشاي الدافئ وسط طبيعة حانية

تجرجر مونيكا قدميها و كأنها مصابة في دأب الي الجانب الأخر من الشارع, لتتأكد أن الحافلة التي وصلت لتوها هي التي ستنقل المجموعة السياحية المتحفزة,و لتقدم نفسها اليهم داخلها بصوت رخيم دافئ من القلب,لا يسعك إن أغلقت عينيك وهي تتحدث إلا أن تتخيل أنها في الأربعين من عمرها,و انهاتتمتع بثقة و قلب صافي و مرح دون خفة,مع أن إنطباعي المبدئي أنها في السبعين من عمرها.

في ختام ذلك اليوم الذي بدا بلا نهاية وصلنا الي الفندق في مدينة ناعسة علي حافة بحيرة محاطة بأشجار و فنادق فخمة كلاسيكية الطابع,و كأنني تركت عالمنا المضطرب المتعجل الي مصايف الستينات الوديعة الأليفة

برنامج حافل و نشط كل يوم, خلصت بعده الي أن تجنب الإرهاق في حالة السفر مع المجموعات السياحية لعدة أيام قد يدفعني في المرات القادمة الي أن أختار رحلات تجمع بين الذهاب و العودة بالطائرة الي المقصد السياحي الرئيسي و برنامج يومي بالحافلة لما حوله.و لكن ها هي مونيكاتجيبني أن عملها يستوجب تكرار رحلات مماثلة تباعا,بل أنها احيانا ما تسافر الي مقصد رئيسي أخر بالحافلة لعدة أيام تتخللها مرات راحة و إقامةفي الطريق بالإضافة للبرنامج اليومي هناك

كيف تحتفظ مونيكا بتلك الإبتسامة الصافية,و ذلك الصوت الدافئ,و هذا الحضور الكامل المرحب,و هذا التقبل الهادئ لمقتضيات عملها المرهق؟ أجابتني في مقهي أثناء وقت راحة.

توفي والدها متاثرا بجراحه بعد الحرب العالمية الثانية,و عمرها سنتان,و تولت والدتها الممرضة تربيتها رغم انها تقتات معاشها من مهنة إضافية تأخذ وقتها,كانت مونيكا نابهة في دراستها,و عملت بعدها في مجال الحاسبات الاليكترونية الذي بدا صاعدا في العقود الأخيرة.و

أخذتها مهام العمل الي تسويق منتجات الشركة في دول اوروبا الشرقية منذ التسعينات.و بتكرار تلك الرحلات وجدت إهتمامها يتزايد بالتعرف علي مناحي الحياة في تلك الدول و تاريخها و ثقافاتها و تراثها,فاصبحت الشركة تكلفها بالسفر مع وفود فنية كمرشدة سياحية,إنطلاقا من خبرتها و معرفتها بإحتياجات السائح النمساوي.

عادت مونيكا الي كتب التاريخ القابعة في مكتب والدها المدرس,فوجدت فيها هواها و هوايتها,و تذكرت أن معارفها كانوا يمتدحون قدرتها علي التدريس حينما بدأت شركة سياحة نمساوية علمت بخبرتها في هذا المجال بالإتصال بها للعمل كمرشدة سياحية معهم.ووجدت مونيكا أن مجال الحاسبات طفق يتشبع بمهنيين شباب أسرع إستيعابا لتطوراته,فإجتازت إمتحان الإرشاد السياحي لتعمل به رسميا تاركة وظيفتها الأصلية.

لم يمر الأمر دون تضحيات, فقد كانت إرتبطت لأعوام طوال برجل يكبرها سنا,ثم أحيل الي المعاش.ووجد أن مقتضيات عملها تبعدها لأيام كثيرة في رحلات خارج النمسا,ولم تعد العلاقة بالتالي تشبع إحتياجات الطرفين العاطفية,فإنفصلا في سلام دون أطفال

كيف تكون الحياة إذن دون أسرة مع تقدم العمر و تراجع الصحة التي قد تدفعها قريباالي الكف عن العمل و الي التقاعد؟تقول مونيكا أنها تعلمت من مسيرةكفاحها ان تبذل الجهد,و تعتمد علي النفس,و تتكيف بواقعية مع تغيرات الحياة و متطلباتها,تلك الطبيعة التي تجلب الي نفسها الإحساس بالأمان و الثقة و الإكتفاء و الإسترخاء,فالسعادة في رايها حالة ذهنية راضية و مرنة,و حيوية و قادرة,تجعلها تتطلع الي ما حولها بعين فاحصة و عقل واع,و إحساس دافق متعايش,فتدرك أعمق و اشمل,و تشعر اقوي و أدق,فتكون سعادة الأخرين سعادتها,و المهم دروسا لحياتها,تعينها علي تفهم و تقبل حكمة الوجود,و علي العرفان لما حبتها الدنيا من فرص و نعم أعملتها,فلا وحدة إذا كان الكل داخلك ومعك,و إذا كنت مع الكل بعقلك و قلبك,بضميرك و مشاعرك

أي مجتمع نريد؟

– بعض النساء تتقن لزوج هو ملك رحيم ، بعض الرجال يريدون زعيماً هو ديكتاتور عادل مستبد. بعض الوالدين يحلمون بطفل ملاكاً طاهراً ، بعض الاطفال ينتظرون أباً عالماً قادراً حامياً. فهل الآمال نماذج قابلة للتحقيق على أرض الواقع ، أم أحلام تخدعنا حتى لا نرى الحقيقة؟.

– نحلم بتلك النماذج حولنا لتكون حياتنا أكثر سهولة وأوفر أماناً . لو تواجدت لما كان علينا أن نقدح أذهاننا فى فهم حقائق الحياة وتعقيدات النفس ؛ ذواتنا والآخرين ، لما كان علينا أن نعمل كالمطلوب ، أن نتحمل المشاق لنيل المراد ، أن نتحلى بالمسئولية عنا وعن اسرنا ومجتمعاتنا ، لما كان علينا أن نكافح لننعم بالثمار ، أن نتعلم لنصبح أقوى وأسعد وأنضج وأنفع .

– لكن تعال نتصور أن المطلق قابل للتحقق ،وأن الحياة تتيح الحلم واقعاً ؛ ملكاً رحيماً ، ديكتاتورا عادلاً ، طفلاً ملاكاً ، والداً قادراً . تعال نحلم أن الكل متاح ، فى حياة لم نختبر فيها ، ولم نتعلم منها . فمن أين لنا إذن بالقوة والقدوة ؟ ، بالعلم وبالثقة بالنفس ؟ بالأمان النابع من الذات ؟ بالحكمة وبالرؤية ؟ بلذة النجاح وبجسارة المغامرة ؟ بشجاعة الروح وبمتعة العيش دون ضمان ؟ بالوعي الكامل وبالإدراك العميق ؟ بمحبة منبعها الفهم والمسئولية والقدرة وتوازن المشاعر ؛ محبة تنير الوجدان وتبعث الدفء وتنشر الخير ؟

– تلك النماذج لو تواجدت قد تكون قدوة ، لكنها أحياناً قد تعوق تطورنا . قد تمنحنا الراحة السهلة المؤقتة ، لكنها قد تجفف منبع المتعة العميقة الدافقة من نفس مطمئنة ، من سكينة الادراك ، من أمان القدوة ، من معيشة اللحظة بوعي شامل وحس عميق وحرية حقيقية .

– هى نماذج لو عاشت وشاعت لبقينا أطفالا معتمدين قاصرين ، لا نعترف بالجميل ، ولا ننعم بما لدينا ، لا تشعرنا الممتلكات بالاكتفاء ، غير قادرين على التواصل الواقعي العميق ، وعلى الخروج من قوقعة الذات ، على العمل والاجتهاد والتحمل والتعلم ، على التفاهم والتعايش والتسامح ، على التنظيم والتخطيط والقيادة ، على الحلم والفكر والإبداع والعمل من أجل الغير والخير والبشرية .

– هى نماذج قد تعيش بيننا ، لكننا أحياناً لا نفهمها ، ولا نعطيها حق التقدير . نشعرها بالوحدة ، ونظلمها بتحميلها مسئولياتنا وبمشقة حياة يجابهون فيها أعاصير مشاكلنا وقصورنا .

حياة نفسدهم فيها بأناشيد المديح ان أحسنوا ، وبنقمة السخط والنكران إن ولوا أو أخطأوا . نشكوا منهم ان دفعهم الخوف والمسئولية للظلم والتعسف ، وان أدت بهم فداحة المسئوليات الى البحث عن مصالحهم الشخصية ،وان عصفت بهم مشاكلنا ففقدوا القيادة والاتزان ، فلا نعطى للقدوة والقائد حق الخطأ ولا نسمح بمساحة لضعف من شيمة البشر . نتصور فيهم الحزم والعدل ، الصرامة والثبات ، الخير والنقاء ، الرحمة والمسئولية فى حين نعجز عن بعض ذلك . نتصور أن يكون نجاحهم بديلاً عن نضجنا وجهودهم ثمناً لراحتنا .

– هل نريد مجتمعاً أبوياً يريحنا من المسئولية ويعفينا من الجهد ؟ الثمن واضح ؛ فلا راحة لأحد ، ولاصحبة لفرد ، ولاعدل لشخص ، ولانضج لذات ، ولا سعادة لنفس ، ولا أمان ولا ضمان أو استمرار لأوضاع تفتقر للعدل والتوازن والمنطق والسلاسة .أم نريد مجتمعاً من البالغين الأسوياء ؟ مجتمع العمل والمسئولية ، مجتمع العلم والفهم ، مجتمع المساواة والعدل ، مجتمع الانجاز والنضج ، مجتمع الحرية والتضامن ؛ مجتمع يجسد رفعة الإنسان وحكمة الحياة ، يعمر الأرض وينشر السلام والاستقرار ؟ .

– الاختيار سهل لكن الطريق شاق .

وبعض الرجال

– طفولتهم أوامر ونواهي تارة ، وتدليل وتمليح تارة آخرى . أوامر قد لا يدركون مدى فائدتها ، ونواهي لا يدرون أسبابها . لكنهم أطفال يمتثلون كسباً للرضا أو خوفاً من العقاب . تدليل ربما وراءه فرحة والدين بطفل جميل ، أو رغبة أيهما في إبهاره بالهدايا والإطراء كسباً لمحبته دون جهد أو فهم ومشاركة مسئولة تقربه وتعلمه ، يعاملونه كدمية عجيبة تؤكد ذواتهم حين يفخرون بنوادرها ، وإن تمرد فله الزجر وسوء الجزاء . فهل شعر ذلك الطفل بالأمان ؟ وهل فهمنا شعوره وتجاوبنا مع حق احتياجه ؟ وهل احترمنا طفولته وحقوقه وإنسانيته ؟ وهل تواصلنا جميعاً معه أم أحس لاوعيه أن الوحدة مصيره والمنفعة قانونه .

– بذرة الوحدة تنمو مع الزمن بزيادة التوقعات ؛ عليه أن يتفوق دراسياً ويلتزم أخلاقياً ، ويتماشى مع الموروث الثقافي والاجتماعي والديني حتى ولو تظاهراً ، وأن يمتلك جسماً قوياً مفتولاً ، أن يفرض نفسه بالقوة بين الأقران والمنافسين حتى على حساب مبادئ تسبقها المنفعة ؛ فإما غالب أو مغلوب ، يرى الوحدة مصيراً والمنفعة قانوناً ، والشطارة الخادعة وسيلة مقبولة ، والعواطف ضعفاً ، والمبادئ راية كلامية ، والإنسانية والحقوق لغة الضحايا والأغبياء ، والزهو والتفاخر والاصطناع تأكيداً لرجولة يتصورها .

– بعض الرجال يتربى فى وسط يمجد القوة ويقمع الإنسانية والحقوق ولا يحترم الآخر إلا قياساً على سطوته وثرائه وسلطته ومكانته . بعض الرجال يتراوحون بين التجبر والقمع أو الخوف والضياع . قمع النفس ممارسة أزلية ، والسيطرة على الغير بديل للتوافق النفسي ، وإلا أصيبوا بالتوتر والإحباط والانهيار ، وتولدت المشاكل والصراعات .

– بعض هؤلاء الرجال يعتبرون الرجولة سطوة ، لا تحفل بالمنطق والحقوق والإنسانية والاحترام ؛ احترام الذات واحترام الآخر . هم ضحايا لتربية تمجد القوة وتتناسى الإنسانية ، ولكنهم يعيدون الكرة بعد تبادل الأدوار مع زوجاتهم وأطفالهم في حلقة مفرغة ، تفرخ الوحدة والظلم والشقاء .

– بعض هؤلاء الرجال حين يمتلك المال والمكانة والنفوذ يريد أيضاً أن يمتلك زوجة خانعة ، تؤكد بإعجابها أو خضوعها اختياره النفسي وذكورية فجة لا تستند على آدمية ومبادئ وتوافق واحترام ، فلا يستطيع أن يمنح كرامة وحناناً لم يحصل عليهما طفلاً ، ويتحول الى كافل حامى وحيد ، يعتمد عليه الآخرون دون تواصل أنساني يطفئ احتياجه .

– فهل يمكن لبعض النساء أن يتمتعن بمزيد من الكرامة والاحترام والاستقلالية ؟ وهل يمكن لبعض الرجال أن يكونوا أكثر إنسانية واحتراماً وتوافقاً ؟ وهل يمكن لنا أن نربى أطفالا أسوياء ينعمون بالحقوق والاحترام والكرامة والتلقائية والأمان ؟.

بعض النساء

يتعلمن منذ الطفولة أن الجمال رأس المال ، أن هناك أباً يحمى ويدلل ، وأن هناك أماً تحذر وتمتثل ، وأن هناك أخاً مزهواً بقوته وسطوته ، يعيش عالماً رائعاً فتياً مثيراً وجريئاً ، لاتحكمه تلك القيود والمخاوف ، يرقبنه بإعجاب وربما حسد ، فلا يملكن أكثر من الحلم والتعلق والإعجاب بعالم السوبرمان الحافل بالإثارة والمغامرة والانطلاق ؛ عالم الرجال ولما لا ؟ ، فكل الأنبياء والزعماء والفلاسفة والحكماء ورجال الدين ذكور ، والأسهل أن يعتنين بالدور المرسوم ؛ قطعة الشوكولاته حسنة التغليف فى فاترينة العرض .

– تجيء فترة المراهقة بآلام وأحمال ، وتحديات ومخاوف ، هشاشة تستدعى الحذر والدفاع ، جاذبية مثيرة وخطرة ، تزداد مؤقتاً لتخفت تدريجياً مع الأيام ، يعتريهن القلق فرأس المال يتطاير ، والمنافسة حادة وشرسة ،والحياة حافلة بالأخطار والخديعة ، إنسانيتهن تتواري خلف الجمال والجسد ؛ السلعتان الأكثر مبيعاً . الجوع للفهم والتقدير والحب والأمان يدفعهن للانجراف وراء عبارات الإعجاب اللاهثة من أحباب وشركاء طامعين ، لا يحفلون بمبادئ وعدالة ، ولا يرون الجوهر ، غير جديرين بالثقة ولا يتصورون إلا الزهو والسيطرة .

– المنافسة تشعر بعض النساء بالخوف وضعف الثقة فيتفنن في التزين والتظاهر، الرغبة فى امتلاك الأمان والخشية من الزمن وذهاب الجمال فى عالم القوة والسطحية تدفعهن للتنازل أمام رجال جائعين للسيطرة والجنس والتفاخر ، رجال يمتلكون المال ويوفرون الحماية ويمنحوهن الأطفال ، ويشعروهن بأنهن مختارات ؛ حتى لو كان الاختيار لمجرد المظهر ، وحتى لو كان تملكاً دون حب ، وحتى لو كان سيطرة دون احترام وكرامة ، وحتى لو تنافت المساواة وأصبح دور المرأة ثانوياً سانداً أو خادماً مطيعاً وخانعاً ؛ فإنسانيتها تتواري خلف الاحتياج والأمر الواقع ، وكرامتها تشترى بالأمان المادي والزوجي والجسدي ، وكلمات الغزل الخادعة تخدر الحاجة للحب ، وتؤمن مؤقتاً من الخوف من الوحدة والهجر ، والموهبة تهدر فى خدمة الزوج والأطفال وراء الاعتماد على شريك واحد قهار.

– إن عالم بعض النساء هو عالم الجواري ، تباع فيه إنسانية وكرامة وموهبة نساء يتقن إلي الأمان والوفرة ويخشين الوحدة والزمن والمنافسة ، فيقدمن الجمال والجسد فى السوق ، ويفخرن بأنهن مشترات وبأن الأسرة والأب باعوهن للمالك الجديد ، المالك المسيطر الجبار ، يرضينه

حتى لا يبيعهن من جديد ويشترى جارية آخرى ، ويتركهن للحاجة والوحدة والخوف والزمن .
– عالم ظالم، لكن الضحايا ينشدون الظلم، فلا خوف عليهم بل هم راضون.

لغة الجسد

– راقصون مختلفو الجنسيات ، مدربون على الرقص المعاصر والبالية والفلامنجو والتانجو والجاز والعزف بدقات الأقدام ، تجمعوا في عرض واحد بألوان من الموسيقى الكلاسيكية والشعبية ، تلهب المشاعر ، وتأخذ الألباب ، فتشعل القاعة بالتصفيق ، دون أن يدرك غالب الحاضرين لماذا انطلقت عواطفهم ؟ وماالذى شحن دوافعهم على نحو الدقة ؟ وكيف يحركهم اللاوعي _ هذا المخزون النفسي الغامض الغالب الكامن _ بهذا الاندفاع والجموح ؟ .

– أجساد الراقصين مرسومة الجمال ، دون عضلات مفتولة ، أو ملابس زخرفية ، فليست إذن هي القوة والثراء الذي يثير الإعجاب ؛ لكنها الرشاقة ومرونة الحركة والإتقان . ووراء ذلك قدرة النفس على تطويع الأبدان ، ودقة الإحساس التي تشكل حركة الجسم تجاوباً مع الموسيقى والإيقاع . هي شدة الانفعال البادية في قوة وإتقان التعبير الحركي ، وقدرة الفنان على تقمص الأدوار والشخصيات ؛ من قائد منتصر إلى عاشق مفتون ،من عابد ممتثل إلى محب مخدوع ، من فارس نبيل إلى شيطان مريد ، من بطل منقذ إلى فتى نقى وديع . جميعهم يرسمون لوحة رمزية للحياة وخليطها الرائع من الخير والشرور حتى وإن تباينت المواقف وأساليب التعبير .

– لكن ماذا يمثل الرقص لهؤلاء المؤديين ؟ مجرد الأداء والشهرة أو الهواية والكسب المادي ؟ ربما . إنما كم هو الجهد في ممارسة التمرين والأداء والالتزام بالتغذية السليمة ؟ ما نوع الشعور المتولد لديه عن جمال الأجساد ورشاقة التعبير ودقة التجاوب وشدة التأثير والإبهار ؟ . هل تتمازج لدى الراقص مشاعر القدرة والحرية والانطلاق ؟ هل درب الأداء على الحياة من خلال الآخرين بتقمصه للأدوار ، وعلى التواصل من خلال لغة الجسد ، فيتسلل مفعولها إلى لاوعى المشاهدين ليفقدوا مؤقتاً بعضاً من سيطرة المنطق على الفهم والانفعال والتعبير ؟ هل يمثل الرقص متنفساً للمشاعر وتفريغاً للتوترات ؟ هل يمارس الراقص تمرده أم يدرك مكنون نفسه

حينما تتقمص مختلف الأدوار ؟ وما هو المعنى الخفي لشكل وقوة حركة كل أجزاء الجسم ، بسيطة كانت أم مركبة ؟ .

– نميل على مدار أعمارنا إلى التعبير بالكلمات . نجتهد في اختيارها ونطقها بنغمات وأصوات تتباين في النوع والعمق والقوة والسرعة، دون أن نتمكن أحياناً من التأثير على السامع بمثل ما حققه هؤلاء الراقصين دون كلمة واحدة، فلماذا لانعى ونتقن التعبير بلغة الجسد؟ وهل نستطيع أن نتصور قدرتنا على الفهم والتواصل والتأثير إذا علمناها ومارسناها في حياتنا اليومية؟.

ذلك الطفل بالداخل

– تبهرنا الاختراعات العلمية المتوالية، تتحقق بها الأحلام واحدة بعد أخرى، لا نكاد أن نستوعب إحداها أو نستهلك سلعة تطبقها حتى نسمع عن الجديد في نفس المجال أو نحوه ، ولا نلبث أن نصدق أن حلما يتجسد حتى نرى معجزة جديدة، ليتضاءل حيز المستحيل ويتعاظم شأن الإنسان، ذلك المبتكر دون حدود المتطور دون انقطاع.

– نبحث عن سبب لتسارع عجلة التطور المتزايد في عالمنا المعاصر، هل هو تعليم ينمى العقل الناقد وملكات الدارس ، أم هي ثورة معلومات في عصر الحاسبات الإلكترونية، أم هي ثقافات تثرى الروح وتنير المستقبل ، أم سياسات حكومات وشركات تشجع البحث العلمي، أم العائد المادي للمخترعين في عصر العولمة وانفتاح الأسواق؟

– هو بالتأكيد كل ذلك، ولكن كيف يتأتى لأفراد دون نظرائهم في نفس المجتمع أن يكونوا هم المبتكرين؟ هل السبب امتلاك الذكاء والعزيمة والتصميم وبذل الجهد المتفاني؟ هل هو الايمان بالهدف والثقة بالنفس أوأن الحاجة أم الاختراع كما يقال؟. هي كلها دوافع وأسباب تمنح القوة لصاحبها، ولكنها قد لا تأتى بجديد دون فكر يتحدى المألوف أو إلهام يتجاوز المنطق ، يتيحان لعوامل القوة والجهد أن تنتج اختراعا علميا أو إبداعا فنيا.

– فمن هو إذن ممتلك الفكر المجدد وإلهام الحدس؟ وهل ذلك بالضرورة وليد ذكاء موروث أو فطرة جلب عليها الفرد ؟ أم نتاج جهد فردى أحسن الإفادة من ظروف محيطة مواتية؟ وكيف يمكن للفرد أن يصل لتلك الحالة الذهنية المتميزة بالابتكار والإلهام ؟

– لكل مجتمع عادات وتقاليد وموروث ثقافي واجتماعي وديني يقرب المفاهيم ويشكل خلفية

للقوانين والنظم وجزءا من البناء النفسي والقيمي للفرد، يؤثر في سلوكه وشعوره ودوافعه بحيث يوضع في الاعتبار مع الحسابات العقلية والمنطقية لتجيء متفقة مع أرض الواقع، فتحقق الهدف وتتيح القبول الاجتماعي للفرد.لكن تملك ذلك الموروث من نفس الفرد دون اقتناع حر بمضمونه قد يسفر عن جمود واغتراب أو توتر داخلي لا يقبل ما هو جديد، ويجعل حياة الفرد تقليدا لاخرين أو اتساقا إجباريا معهم ابتغاء المراضاة والقبول.

– هو جمود لا يسمح بالحياة للطفل بالداخل، ذلك الطفل المتميز بالحيوية والحرية والمرح والإلهام والتجدد والابتكار، والذي يعمل بانسجام بلا كلل إذا ما انطلق وأتيحت له الحرية والأمان دون خوف أو وصاية، يرى الأمور بعقل متفتح وفكر واعٍ دون تقيد بمسلمات منقولة ان لم يقبلها بفكر متحرر واثق ومسئول، حتى يكاد العمل أن يكون لعبة مثيرة تتملك الفكر والشعور والوقت، نتيجتها الإنجاز المبهر والتجديد المتواصل والإشباع النفسي وربما إثراء الصالح العام ومستقبل الأجيال .

– قد يسعدنا الحظ بتعليم متميز أو بظروف ثقافية وسياسية ومادية مواتية أن نطلق ملكاتنا وحوافزنا لنبتكر ونجدد ، لكن الافتقار لبعض تلك العوامل لا يعفينا من مسئولية أن نعيش أنفسنا حقة أصيلة بفطرة سليمة وفكر متجدد وعقل مسئول متوازن متوافق وجهد فعال ومفيد .

– هي الشخصية التي تتيح للفرد حياة عالية القيمة توفر له السعادة والصفاء والتوافق والسلام، وتفيد مجتمعه بعمل مثمر وانتاج متميز وعلاقات متحضرة مسالمة وإبداع ثقافي وعلمي، يدفع المجتمع للأمام.

فإن أردنا فليبدأ كل منا بنفسه.

مواطن صالح

استلقي علي فراشه في نهاية يوم عمل شاق,يجترع متاعبه,مرور مزدحم,ضوضاء شوارع,موظفو خدمات متعسفون غير حرفيين,عمل مرتبك يؤدي دون المام و اتقان و تخطيط كافين,تصرفات عصبية دوافعها غير موضوعية,علاقات شخصية سطحية مغرضة تفتقر للمصداقية و الحكمة و الاخلاص,تتراوح بين مجاملاتزائفة و غضب عنيف متسرع ,و تحكمها ممارسات القوة,مقنعة كانت أو فجة.هو يوم عادي في حياة يؤديها بدأب و احتمال , و لكنه اليوم فقط يتساءل عن أسبابها و نوعيتها بل و جدواها,عن هذا التكالب اليائس المتهافت علي الهجرة الي و العيش في مدن مكتظة و ملأها بذرية كثيرة رديئة التربية محدودة التعليم مشوشة التفكير دون تخطيط لمستقبلها و رزقها قدر الطاقة,اعمالا لغريزة حب البقاء و لو بمضاعفة المشاكل بدلا من مواجهتها, ثم القاء تبعة الحل مستقبلا علي الله و الحكومة حتي و ان كان المرء يشكو حاضره؟.يتساءل عن مغزي أن يتبرم مواطن من الضوضاء فقط اذا ما كان غيره مصدرها ,و من سوء خدمات فقط اذا ما كان ضحيتها,في حين يعطي نفسهمطلق الحرية أن يؤدي عمله بأقل الجهد و الالمام و الفكر و المسئولية طالما كان أمنا من العقاب أو التوبيخ؟.يتساءل عما اذا كان الناقدون للتدهور الأخلاقي يضربون حقا المثل في الجدية و الصدق و الالتزام و الحكمة و المسئولية و الاحترام أم يشاركون في اللعبة ذاتها و يجأرون بالشكوي ا ن خرجوا خاسرين؟.يتساءل عن سبب أن ينعي البعض ضياع الحقوق في حين يتهربون من القوانين ويفرضون قانونهم الخاص كلما سنحت الفرصة دون حسيب؟.يتساءل عن سبب الفردية المتوحشة,هل هو ناموس العصر أم ضعف الانتماء و اليأس من استمرار المعاناة؟ ,وعن جدوي الخلاص الفردي حتي و ان تحقق وسط غابة من الشقاء تفرض نفسها علي كل من يحس و يعي؟.

يري دولا غنية يظنونها مثلا للرفاهية,فيجد قوانينا تنظم الفردية و التنافس و تحمي المجتمع ,و لكن يبقي القانون الذهبي أن القلة تحتكر أغلب الثروة حتي و ان كبرت الطبقة الوسطي, انما الفرد و ان تمتع بجودة سلع و خدمات و ضمان اجتماعي لاهث في عمل يستهلك الطاقة و الفكر و الوقت طلبا للجودة و الاتقان و الابتكار و التميز,ليصمد في سوق عالي التنافسية غزير العرض,تتجاذب منتجاته المكلفة دخول أفراد يتهافتون علي زيادتها و علي الادخار,جريا وراء أحلام لا تنتهي لتملك كل ما هو جديد و متميز و لزيادة تنافسيتهم في سوق العمل .و يمر بهم

العمرمنغلقين بين قضبان العمل و الاستهلاك و اشباع الدوافع الشخصية دون اثراء للنفس بالتواصل مع الأخر و الحياة التي تكيفوا مع ظلمها بقيم المنفعة,فهي حياة مميكنة قانونها كسب و ممارسة القوة المتوافقة مع القانون حتي و ان توارت العدالة و الدوافع و الأخلاقيات السامية.

بدا الأمر له و كأنه لا مهرب منه ,و كأنه مغترب في عالم ينتحر شقاء,ناميا كان أم متقدما.هو لا يريد أن يعيش دون وعي رقما في قطيع ولا يملك أن يضيع نعمة حياة يستطيع فيها أن يكون مختلفا بأن يعيش ذاته,فليبدأ اذن بنفسه ,بأن يعمل كما يجب حتي لو لم يكن ذلك ضروريا ,بأن يحترم القانون حتي و ان كان أمنا من العقاب,بأن يراعي مبادئ متماسكة تصون الكرامة و تمنح المغزي لحياته حتي لو عاش في مجتمع يضع المصلحة فوق المبدأ و القوة فوق الحق ,بأن يطبق أفكاره حتي لو كانت مختلفة أو جديدة ,بأن يعبر عن مشاعر صادقة و يتخذ مواقف مسئولة حتي و لو كان ذلك صعبا ,بأن يراعي توافق مصالحه الفردية مع الصالح العام حتي و ان بدا ذلك مثاليا.

لقد اختار طريقه بأن يتحلي بالقدوة و المسئولية الجماعية ,بأن يكون مواطنا صالحا بمعني الكلمة.

تخيل

ان لم يكونوا يفعلون، قد يمكنك أن تتخيل ولو واحد منهم .

– تخيل أن كل ما سيقوله لك الأخر صحيح وصادق ، تخيل أن الآخر يعتز بنفسه فلا يرضى أن يقول كذبا ، وانه من منطلق هذا الاعتزاز يدقق فى دوافعه ورغباته ، فيرغب أن يكون على حق ، وأن يتمتع بثقة وانفتاح ومسئولية تتيح له أن يستمع الى رأى مخالف ليجد الحقيقة أو الفعل الأفضل لصالحه ولصالح الآخر معآ .

– تخيل أنه يرفض الاضرار بغيره ويستمد سعادته من فعل الخير والخدمة والاسعاد ، ولانه يصدق احساسه يشعر بما يحس به الآخر فينتقل اليه حزنه أوفرحه .

– تخيل أنه لذلك أصبح يعيش من خلال الآخر فلا يكون العطاء خسارة بل كسبآ حتى ولو كان دون مقابل ، وانه بذلك يرى أن كل فرد جزء من واحد واصبح ينتصر له ،فتكون علاقاته وتصرفاته خدمة لجميع الأطراف والصالح العام دون أن يكون فى نفسه غضاضة ، لانه يأبى الانانية والشر والطمع والخداع حفاظآ على صورته أمام نفسه، و تجنبا لانقسام طاقته النفسية والروحية ومن ثم تأثيراتها على صحة جسمه بين مشاعر متضاربة ، يرفض أن تضعف انتاجه وسعادته وراحته .

– تخيل أنه تخلص من المخاوف والشكوك والتناقضات ، فأصبح حكمه على الأمور والأشخاص راجحآ ، وانه لهذا يتمتع برؤية تجعله يتوقع المستقبل دون هوى ، ويخطط له بواقعية ، يبذل جهده دون حدود ودون ضمان ويقبل أى نتيجة ومصير دون تعلق ، ويحل كل مشكلة فى الوقت المناسب دون قلق ودون ندم . تخيل أنه يتمتع بالتعلم حتى لو كان عن أخطائه، فخسارة الموقف لاتستلزم خسارة الدرس . النمو والنضج افضل ما يستطيع لسمو الشعور وتوافق النفس وجودة العمل والانتاج . وانه مع تفوقه لايقارن نفسه بغيره بل يمد يده لمن يريد التعلم أوالمساعدة دون مقابل .

– تخيل أن مشاعره تخلو من الكراهية والانتقام ، وانه يقبل الحياة والأخرين بما لهم وما عليهم ، فذلك خلق الله ، والتناقض والتفاعل سبب لاستمرار الحياة والتعلم الذى يقوى ويطهر النفس الطيبة . تخيل أن رحمته وتسامحه تجعله يقدر أن وراء تصرفات الاشخاص التفاعل بين اراداتهم وامكانياتهم وظروفهم ، وان لكل منا مسار ودروس تختلف فى الحياة ، وانه يدرك أن

فهمه للآخرين قوة للخير ، تجعله يبنى على كل ما هو ايجابى ويتفهم كل ما هو سلبى دون ادانة أو احكام ، فالكراهية ضعف والمحبة نضج وعمق وقوة ورؤية ومسئولية ، تستلزم أن يجد الطريق السليم للتعامل الصادق الهادف النافع .

– تخيل أنه يستطيع أن يعمل طول الوقت دون ملل أو يستجيب لآى ظرف مهما اختلف ، فيعيش نفسه وسعادته وتواصله وتفاعله فى كل لحظة بعمق وجودة وفاعلية مهما كانت الظروف ،عملا أوراحة ، وواجباً أم ترفيهاً ، مشقة أم فرحة ، فهو واحد مستقر قوى فاعل مدرك ومتفاعل فى جميع الظروف حلوها ومرها ، وهو قادر على التعبير المثمر عن مصالحه ومشاعره وأرائه بصدق وبمسئولية ورفق تجاه الآخر ناقلا اليه بعضا من ايجابية الشعور والموقف والتصرف .

– تخيل تأثير تلك الشخصية عليك وعلى الآخرين وانها ليست حلماً ، بل قدوة ، ليست نادرة بل موجودة تعيش وتعمل بيننا حتى لو لم نعرفها أو لم نفهمها اذا ما عرفناها، بل انها قابلة للتكرار والانتشار ، وأن ذلك يعتمد على الآخرين ، وكلنا قد نكون منهم .

كنز الوحدة

ماذا تفعل لو كنت وحيداً ؟ هل تشعر أحياناً بالسأم حتى إذا لم يكن عليك أن تواجه مشاكل مستعصية ؟ هل تلعب ، تعمل ، تدرس ، تتزاور ، تنجز، تحب ، تتسوق هرباً من الوحدة؟

هل تواجهك الوحدة بمدى ألمك ومدى احتياجك ؟ فتكون مختنقاً عصبياً ، ويكون النشاط مسكناً ومفراً مؤقتاً من الضجر؟

لكن مهلاً ، فقد يكون اللعب دون اندماج ، والعمل والدراسة توتر ينقصه التركيز والتعمق ، والتزاور مجامل سطحي ومنغلق ، دون حق اكتراث ، والإنجاز غير مشبع ، والحب تملك وتبادل اعتماد معوق للنمو ، والتسوق لا يناسب الاحتياج كماً وسعراً وجودة ، فما هو طريقك لحياة عالية القيمة؟ لسكينة نفس ؟ لرقي الشعور والعمل والتعامل ؟ للإلهام اختراعاً أو فناً تمتد فائدته للمجتمع حاضراً ومستقبلاً وللبشرية جمعاء ؟ لروحانية تسمو بالنفس وتشعرك بأنك جزء من كل ، بالفهم والحب والرحمة وبمسئولية تجاه الجميع ؟ مسئولية تجعل كل علاقة عميقة ومثمرة ، واعية وعادلة، مسالمة ومستقرة ،ملهمة دون حدود ، يمكنك أن تنهيها فوراً مهما كانت دون معاناة لو نحت سلباً ؟ من أين تأتي بهذه القوة والطاقة والاستقلالية والسمو والمحبة والواقعية والصدق والعمق والوعي والرؤية والإلهام ؟ وماذا تفعل لو تواجدت في جماعة تحاصرك بالخديعة والسطحية والأنانية والبدائية وممارسات القوة دون رادع المسيئة لصاحبها في المقام الأول؟

ماذا تشعر لولم يستطع من حولك الفهم والتقدير والالتزام بالكرامة واحترام النفس والعدل والشرف ؟ لولم يمتلكوا الوعي الذاتي ، ولم يضعوا القيم قبل المصالح ، ولم يتذكروا الرحمة ومحبة الغير مثل محبة النفس ؟

الجأ إلى الوحدة بل والعزلة ، تمسك بما تهرب منه ، واستغن عما تسعى إليه ، اجعل الوحدة ملاذك ، أعط نفسك فسحة للتواصل مع نفسك ، وواجه ما تهرب منه ، فألمك الصغير المؤقت الصادق محرك الفهم والاستيعاب والتطور ، وطريقك لسلام النفس وسكينة وصفاء الروح ، هم منبع السعادة والرقي والإلهام والحدس ، ومصدر لقوةٍ دون حدود ، تجعل العمل متعة واتقاناً ، والعلاقات عميقة مستقرة ، والمحبة صفاء ونضجاً وبناءً باحترام واستقلالية ووعي، والفن استغراقاً وإبداعا ، تواصلاً وخلوداً.

اندمج في الحياة حتى حينما تكون وحدك ، فالجميع بداخلك ، وروحك تشع بالألفة والفهم والمسئولية والخير .اشعر بكل خلية في جسدك ، عش حتى القمة ، أدرك المجهول وغير المرئي ، طهر روحك ، وتمتع بجرأة أن تعيش اللحظة بعمق ورقي ، بالأمان الذي يمنحك

الصدق مع نفسك والآخرين باحترام وإيجابية ، ثم تحدث للغير عن التجربة .عبر عن روعة العواطف والانفعالات التي تهز النفس والشعور ، وقد تفاجأ أن حالتك الذهنية انتقلت لآخرين ولو لوهلةٍ ، وأمتعتهم بلحظات بلورية ووعي عميق قد يدوم ويبني يوماً ما .

خالط الأسوياء ، تمتع بالفن الراقي ، استشعر الجمال ، والإتقان والرفعة ، أملأ أذنيك بموسيقى تبعث السكينة والحب ، تجدد الآمال والإيمان بالإنسانية والخير .أنعم بالتحرر الكامل من الاحتياج والمخاوف ، وتنفس بعمق في أرض الله .

غير حياتك بالصبر والتسامح والمحبة ، لتفهم أننا جميعاً نمر بمراحل متباينة في مدرسة الحياة ، جئنا لنتعلم ، لنلعب دوراً في حياةٍ تتطلب لاستمرارها تفاعلاً بين الخير والشر ، ليتعلم الناس وليتنافسوا نمواً وتطوراً ، حتى ننضج ونفهم أنفسنا والآخرين والحياة ، فنستحق السعادة والسلام والتوافق ، نستحق ونقدر الجنة التي نتوق إليها في السماء ، ونحاول بناءها على الأرض .

سيرك بلا حدود

– هل يمكن تعليم الأطفال دون العاشرة قضايا الديمقراطية والحفاظ على البيئة وثقافة السلام والاهتمام بالاسرة ووقف التسلح ومقاومة سيطرة رجال الأعمال على الساسة والشعوب ؟

– سيرك متنقل عائلى من أربعة أفراد وصديق ، درس الأب المسرح وعزف البيانو والساكسفون ، واصطحبهما معه فى عربتين خشبيتين ، بنتهما الزوجة وطرزت الأقمشة والستائر، العربتان تجرهما الخيول ، ويضيئهما مولد يستخدم الطاقة الشمسية.

– السيرك مر بارياف عدة دول اوربية ، يتحرك كل عدة أيام ، وتمنح البلديات أصحابه المأوى فى فصل الشتاء القارس أما الجمهور فهم أطفال ريفيون يجيئون فى صحبة الأهل ، ويشارك بعضهم فى العرض الذى فاز فيلم تسجيلى عنه بجائزة فى مهرجان دولى ، وصدر بشأنه كتاب أنيق مصور.

– يبدأ المسرح برجل يسير فوق عصيان خشبية ، يتعالى ويظهر سطوته وذاته المتضخمة ويحرك طفلا متبلداً كدمية بخيوط ، يتحكم فى توجيهها ، ليحول الطفل الى آلة لاتحس ولا تنفعل ، تعيش دون روح لتنفذ ما يراد لها ، حتى يجىء طفل آخر فى غيبة الديكتاتور ، يحدث الضحية ، ويبث فيه الأمل والانتعاش ، الا أن السلطة العائدة تخمد الصحوة فى مهدها وتتمالك الموقف حتى يتحول المحكوم الى عالة على الحاكم ، ويكون البؤس والفشل مصير الاثنين.

– نفس الذات المتضخمة هى من تدفع شابا فى فصل لاحق ليتفنن فى مغازلة شابة ، ويستعرض عضلاته وملكاته وحيله لينال اعجابها بأى شكل ، ليرضى غروره ، ويحبط الشك فى نفسه بفريسة مخدوعة ولو الى حين ، ولكن الأمر ينتهى به بجسد أنهكته الرياضة ، وعقل انشغل بالمظاهر والتآمر ، وطاقة مهدرة ، ونفس وحيدة خائبة ، تسكنها الظنون ، وتفتقر للصدق ، وكرامة أهدرها بهلوان عاجز عن تحقيق قناعة نفس وسكينة ، تتطلب رجولة حقة نظيفة وتناغماً مع الذات والحياة وعلاقات صادقة مستقرة.

– يستمر العرض ليصبح الشاب رجلا بالغاً يسعى للسيطرة على الطبيعة باقتلاع الأشجاروقتل الحيوان وتلويث البيئة بالمصانع والمخلفات ، لتنقلب عليه الطبيعة بالفيضانات والزلازل والكوارث ، تعاقبه على تغليب مصالحه الضيقة وقصر النظر ، وتفسد عليه أمنه واستقراره ، وليدفع ثمن جبروته وجشعه وجهله.

– انه نفس البالغ المتهافت على المادة المكتسب من صناعة السلاح والتربح السهل والوجبات السريعة المفسدة للصحة ، والذى يحتج عليه الأطفال و الأبرياء بملأ العالم بالورود والأشجار والتعايش مع الحيوان والرفق به والحفاظ على البيئة وحب الحياة وخلق الجمال والابداع واشاعة الحب والفرح والتلقائية.

– ينتقل العرض ليظهر البالغ المعاصر فى أسرته مشغولا طول الوقت بهواتفه ومصالحه وعلاقاته والآلة الحاسبة والتلفاز ، فيبدو كمؤدى لايعيش اللحظة ، ولا يدرك المشاعر العميقة ، ولايمتلك نظرة شاملة ، لايتمتع بحق ، ولا يهتم بأسرته وباطفاله المشغولين بدورهم بالعاب اليكترونية تعلم القتل والقسوة ،انه لاهث هالك ، ووحيد مضطرب ، وقلق بلا نهاية ،فيمضى به العمر وكأنه لم يعشه حتى تنفذ موارده ويمرض جسمه.

– تأملت العرض بعد نهايته فوجدته القى فى وعى أو لاوعى الطفل كيفية التعامل مع أهم ماسيواجهه فى حياته، طفلا وشابا وبالغا مع النفس والآخر و الطبيعة والاسرة والمال ونظام الحكم وتذكرت ان بطله أعلن فى المقدمة أنه وزوجته جابا بقاع الأرض ، وتركا حياة المدينة والرفاهية ، ليبلغا الدروس للاطفال ، فتلقوها بمرح وتسلية لقاء مبلغ زهيد.

– الزوجان يعيشان حياة متقشفة لنقل رسالة عجز اغلب البالغين المعاصرين عن فهمها كاملة فى الوقت المناسب ، فاعادوا انتاج الاخطاء ، وشاعت الحروب والكوارث والانانية والخديعة والشقاء والامراض النفسية والجسدية والوحدة والمخاوف فى عالم مضطرب وغير عادل.

– الأبوان حرصا على تعليم أبنائهما بنفسهما وبنظام الانتساب والمراسلة ، فتخرج احدهم طبيباً ، والتحق ثان بالتعليم الجامعى ، ويشارك طفلاهما الآخران فى العرض مع الأبوين.

– الزوجة ابنة رجل أعمال واسرة ثرية ، هجرت الرفاهية والحياة المصطنعة لتخدم البشرية بدءآ باطفال الريف.

– ويتمتع الزوجان بصداقات قلبية وباحترام صادق أينما حلا ، فالتقدير للرسالة يفتح القلوب والعقول ، ويحيطهما بالعرفان والتعاون.

– تذكرت فى بلدنا حكايات الأراجوز التى تنتهى برجل يتحكم فى زوجته الثائرة بالعصا، وببعض ماتقدمه برامج أطفال ، تتعامل معهم كما لو كانوا عاجزين عن الادراك لصغر السن ، شعرت

أنه بالامكان تعليم الأطفال بأكثر مما نتصور ، وأن المهارة الحقة تتجلى فى احترام الطفل والايمان بقدراته وتبسيط العرض لا المغزى.

حديقة الحياة

حياة تتسارع وتيرتها ، ربما بأكثر مما تصورنا منذ ريعان الشباب ،واجبات يومية تتعدد بتعقد الحياة وزيادة الازدحام ، علم يتقدم فيقدم ماهو جديد من تقنيات يضطرنا العمل ومطالب الحياة لاستيعابها ، ومعلومات متدفقة نكتسبها لنزداد قوة ولنواكب العصر.

قد تكون عالما أو موظفا أو مديرا أو فنيا متخصصا ولكنك تتسأل متى يمكنك أن تؤدى كل ماتراه ضروريا أو مطلوبا ، وان أديته كيف تستمتع بوقت فراغ ان لم تكن تعيش اللحظة بالاداء واتقانه ؟

وقد لاتجد وقتا للفراغ ، وان توفر قد تكون مرهقا فتستريح مع الأسرة أو تشاهد برنامجا أو تمثيلية ، وقد لاتكون الراحة كافية لتجديد الطاقة ، فهى حياة تستهلك الجهد العضلى والعقلى والنفسى والجسد ذاته ، وقد يدفعك هذا لتتأمل بعد مرور السنين فيما اذا كانت حياتك حقا سعيدة أوان صحتك ستتحمل طويلا ضغوطا وأزمات لم تعرف الا بعضها ونحتت آثارها أمراض البدن ، فالراحة لا تكفى والطاقة منهكة والمشاكل لا تنتظر ، وتجديد الطاقة قد تراه ضروريا لتحسين الصحة والانجاز والسعادة.

قد تلجأ فى وقت فراغك لكتاب ولكن القراءة تتطلب جهداً وتركيزاً ، وقد تمارس الرياضة الفردية لكنك قد تشعر أنك تؤدى واجبا ان لم تكن مشوقة ، قد تقابل أصدقاء ان توافر لديهم الوقت والرغبة ، قد تشاهد فيلما أو مسرحية لكنك تكتفى حينها بالتلقى ، فما رأيك فى العمل بحديقة ؟ هل تراه عملا يدويا لايستحق وقتك وجهدك ولا يناسب مكانتك الاجتماعية والوظيفية ؟ انظر الى حياتهم عبر البحر المتوسط ، كثير يتركون حياة العواصم الصاخبة الى المدن الصغيرة والضواحى والقرى أو يمتلكون منزلا ريفيا ، العامل الفنى اجرته عالية ، فينمى التعليم التقليدى مواهب العمل اليدوى للابتكار الفنى تعبيراً عن الذات وللقيام بالاصلاحات العادية والطارئة.

قد يجد بعضهم فى حياة الريف الهدوء والسكينة والجمال ووفرة الوقت والمساحة والخدمات ، فتكون المنازل الريفية أكثر اتساعا وتمثل الحديقة قانوناً اغلب مساحة الأرض ،

فيعود الانسان جزءآ من طبيعة نقية وبيئة نظيفة تشحن احساسه بالجمال ، ليتحول من معنى الى مغزى وقيمة عليا ونواة لمجموعة قيمية مترابطة كالنظام والنظافة والاتقان والرعاية والعطاء وحب الحياة.

لو عملت فى حديقة فأنت تمارس رياضة ممتعة ومفيدة معآ ، رعاية النبات تجربة للعطاء والحنان والرعاية ، ازالة الحشائش الضارة كتطهير النفس ، وقص الزهور والفروع الذابلة ترشيد للطاقة ، رؤية الاشجار تنمو والورود تتفتح كفرحة تربية الطفل وانضاجه ، الحديقة معلم للجمال ،وجمالها دليل اتقان ومحبة وشعور متناسق.

وعرفان لجهد دءوب بذلته بصبر وايمان بقيمة الحياة والأمل.

ان كنت وحيدا أو حاصرتك الضغوط وانغمست فى ذاتك وانشغلت بالمرارة والأحزان فأخرج منها الى عالم الحقيقة والجمال لتمتلىء أحاسيسك بالمعانى النبيلة وبهجة الحياة ولتخرج من ذاتك الضيقة الى الحياة الرحبة ، فتراها بعيون صادقة وأمل متوثب وطاقة متجددة.

ان كان لديك حديقة يمكنك أن تجعلها معلمآ وطبيبآ وصديقآ ، تفتح حواسك ، تمنحك هواء نقيا ورائحة ذكية ولوحة من الأشكال والألوان الزاهية ، ترسمها بالجهد والابتكار والرعاية لتعود بها من حيث أتيت ابنا للطبيعة وجزءآ من واحد وترسآ فى عجلة الحياة.

إستيريا

فنادق و قصور،عمرها تعدى المائة، تحف معمارية مشيدة بتفنن وإتقان مطلية بدرجات أنيقة من ألوان متباينة وتتدلى من شرفاتها زهور زاهية، بناها أثرياء نمساويون كمصايف امبراطورية على ساحل الأدرياتيكى فيما يعرف الأن بمنطقة استيريا فى كرواتيا، اشتق اسمها من أول شعب سكنها قبل أن تصبح جزءاً من الامبراطورية الرومانية وقبل أن تصلها قبائل السلاف القادمة من بولندا ضمن هجرات شعوب شمال أوروبا إلى بحار الجنوب الدافئة، ثم لتكون لقرون تابعة للبنادقة الإيطاليين، ثم جزءاً من الامبراطورية النمساوية المجرية فإيطاليا ثانية، لتنضم بعد الحرب العالمية الثانية إلى يوغسلافيا السابقة. استعمار إيطالى ثم نمساوى يراه الكرواتيون كغيره فَرَض الضرائب واستغل الموارد، ولكنه شيد الطرق والمرافق والمبانى وجلب ثقافة وحضارة دون استعباد، ربما للتقارب الثقافى والعرقى الذى جعل سكان المنطقة المعاصرين خليطاً من شعوب تلك الامم، والتى مازال سكانها يعتبرون سياحاً هذه المرة وليسوا غزاة ، هم عشرة ملايين سنوياً، أى ضعف سكان كرواتيا لتكون سياحة البحار الدافئة والاستجمام فى الطبيعة الجبلية الخلابة والفنادق الآثرية الصغيرة أهم مصادر الدخل.

المدن صغيرة هادئة تشعرك مبانيها النيوكلاسيكية أنك زرت النمسا ، ومنازلها القوطية المعمار انك فى قرية ايطالية ساحلية لم يعرف بحارتها نظام ترقيم البيوت فجعلوا لكل منها لونآ مختلفآ مميزآ فى المدن الصغيرة فنادق ومحال ومطاعم ومقاه سياحية وشوارع مشاه تشكل معآ لوحآ فنية شاعرية اليفة متناسقة ، لاتجعل لك اختيارآ سوى أن تسعى لتكون جزءآ من هذا الجمال المتناغم الرصين الهادىء فتستغنى عن كثرة الطعام والشراب والتسوق وتمارس الاختيار الحر للجودة والاناقة والصحة، فالطبيعة المبهرة تنمى حسك بالجمال وتيسر اتباع اسلوب حياة مسالمآ صحيآ، توحى اليك بالانطلاق والتآلف مع الآخر المبتسم المستمتع المستبشر.

اذا ذهبت الى تلك المصايف فيمكنك أن تقصد الاستشفاء ، سواء كنت تبتعد عن العمل الشاق والمدن المزدحمة طالبآ الاسترخاء ، أو سعيت للتمتع باختلاط هواء الجبال والبحار المفيد لمرضى القلب والمفاصل من مدن استريا يمكنك أن تستقل قاربآ لزيارة جزر بريونى التى اعلنت محمية طبيعية بعد أن كانت احداها مقرآ صيفيآ للرئيس اليوغوسلافى الراحل تيتو.

والمنطقة تمثل الجزء الشمالى الغربى لساحل كرواتيا الأدرياتيكى الممتد جنوبآ وجزره الألف

وسبعمائه ، منها سبعون جزيرة مآهولة ، وكلها مناطق سياحية.

أحسست لوهلة انها بلد محظوظ يعتمد أهله على سياحة أساسها طبيعية وهبها الله ومبانى ومرافق وثقافة وحضارة جلبها غزاة ، تحول أحفادهم الى سياح معاصرين جاءوا سلاماً تحسبهم شباباً فوق الستين لاعتنائهم بالقوام والملبس والصحة والنضارة واللياقة ينعشون الاقتصاد ويضيفون موارد ربما استنزفها بعض اجدادهم.

ولكننى فوجئت أننى أعبر نفقاً طوله خمسة كيلو مترات يشق جبلا ، ولايعدو الإ أن يكون واحداً من كثير تمتلىء بهم الطرق ، فتجعل السفر مريحاً دون انحناءات أو مصاعد أومهابط ، وتعلمت أن اغلبها أقيم منذ ثمانينات القرن العشرين ضمن خطط يوغوسلافيا لجعل كرواتيا مقصداً سياحياً منتعشاً استناداً لما شيدته ايطاليا قبل اقتطاع استيريا عنها ، لكن الاقتصاد فى بلد تسعى للانضمام للاتحاد الاوربى عام 2011 ليس أكثر من احدى فوائد السياحة ، التى تعلم الكرواتيين التفتح والتسامح وتمزج الثقافات والمعارف وتكسب لبلدهم الأصدقاء والسمعة الحسنة، والتى عرف عنها أن اسم رباط العنق (الكرافات) مشتق من كرواتيا بعد أن نقل جنود نابليون عن أهلها استعمال تلك الأربطة الى العالم.

فى آخر ليلة بمدينة أوباتيا الحالمة وبعد العشاء كنت أعتزم النوم مبكراً قبل سفر صباح اليوم التالى ، ولكننى وكأنى لاأريد أن أرحل وجدت قدماى تسوقاننى الى تراس الفندق لأجد عازفاً يلعب قيثارته ، تندن معزوفة " ذكريات الحمراء " ذلك القصر الشهير بالأندلس ، ليحفر بها ذكريات تلك الرحلة الممتعة فى عقلى وقلبى ولأستدعيها كلما سمعت تلك المعزوفة المحببة.

فينيسيا

– تظهرها هوليود كجزيرة للعشاق ولقضاء شهر العسل ، يتحرك قائد الجندول بالزوجين ويجدف واقفا ، ليمر فى قنوات مائية ، تعبرها كبارى مقوسة ، وعلى ضفافها ابنية رائعة الألوان ، تحف معمارية أثرية تجمع بين العمارة البيزنطية والقوطية والاسلامية والنيوكلاسيكية وملامح عصور النهضة والباروك والروكوكو شوارعها ضيقة متاهات متشابكة ومتشابهة ، تمتلىء بمحال الهدايا من الزجاج الملون وأقنعة الكرنفالات والحفلات التنكرية والساعات والمصنوعات الجلدية يزورها سنويا ما يزيد عن ثلاثة ملايين سائح وكأنهم يعيشون قرونآ سابقة ، ويجوبون ساحات تتجمع فيها الطيور امام مرافىء السفن والكنائس العتيقة الجميلة كتب عنها وليم شكسبير قصتى تاجر البندقية وعطيل ، ونشأ فيها فن الاوبرا ، واشتهر فيها الموسيقار أنطونيو فيفالدى برائعته الكلاسيكية " الفصول الاربعة " والاوبرات التى ألفها.

– قد يتعجب المرء لاول وهلة عن سبب كل ذلك الثراء المعمارى الاثرى والفنى والشهرة والنشاط السياحى والثقافى فى مجموعة جزر صغيرة عرفت باسم فينيسيا أو البندقية ، ولكن الحقيقة المذهلة أنها كانت على مدى ثلاثة عشر قرونآ اطول الجمهوريات بقاء، حتى سماها أهلها الأكثر سكينة ، تحكمت فى خطوط الملاحة والتجارة فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، واحتلت جزرآ ومراكز أرضية تجارية ، واشتهرت بدبلوماسية كثيرآ ما ابتعدت عن الصراعات المسلحة واستفادت منها حتى بلغت مراتب غير مسبوقة من الثراء والرفاهية ، وقيل أن الزينات والنفائس فى منزل متوسط الحال بها يمكنها أن تملأ قصرآ، ولكن وراء ذلك قصة كفاح ومهارة.

– فجزر البندقية كانت تجمعات طينية فى شمال البحر الادرياتيكى ، اضطر سكان من مدن وسواحل الشمال الشرقى لايطاليا الحالية فى القرن الخامس الميلادى للهجرة اليها هربآ من القبائل الجرمانية البربرية التى قوضت الامبراطورية الرومانية الغربية واحتلت أراضيها.

– جلب المهاجرون الاخشاب من الغابات الساحلية ، ليضعوها أساسات لمنازلهم ، وتحكموا فى مسارات أنهار تصب على مقربة من الجزر وتهدد باغراقها ، وجعل الكفاح ضد الطبيعة من أهل الجزر مجموعة متكاتفة تتحسب لجيران الساحل الغزاه وتتعايش معهم وتنشىء أقوى الجمهوريات وأكثرها استقرارآ فى التاريخ الاوروبى ، وتتمتع بسلام وهدوء لم تعرفه القارة حينذاك ، وكان الاستثناء من ذلك تبعيتها للامبراطورية البيزنطيه لقاء مزايا مالية وسياسية وتجارة دون

جمارك ومقابل مادى لنقل جنود تلك الامبراطورية بالسفن حتى انهارت ، ونهب البنادقة القسطنطينية فى الحملة الصليبية الرابعة.

– كان المثير فى نظام حكم الجزر أنها انتقلت من كونفيدرالية هشة الى دولة مركزية ، ينتخب زعيمها لمدى الحياة بمجلس تختاره جمعية ممثلة لكل التجمعات والفئات بشكل ديمقراطى ، يراعى المحاسبة والتوازنات ، وهو مامنح الاستقرار لفينيسيا فتحولت الى قوة تجارية بحرية ، وصل نفوذها الى شرق المتوسط والبحر الأسود وشمال أفريقيا ، واكتسب أهلها المزيد من المهارات بتعلم الحرفيين فى مدن شمال وشرق البحر الأدرياتيكى حتى برعوا فى بناء السفن ، وامتلكوا قواعد أرضية ساحلية للتخزين ولحماية تجارتهم من سطو القراصنة السلافيين ، دون أن ينساقوا الى احتلال أراضى واسعة لايستطيعون ضمان استمرار سيطرتهم عليها.

– وبفضل التجارة وصلت الجمهورية أوج ثرائها بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر ، حتى أصبحت مبانيها وكنائسها مضرب الأمثال فى الغنى والفخامة والتزين ، وارتدى السكان الذين زادوا عن مائة وخمسين ألفا انذاك أفخر الثياب المطعمة بخيوط الذهب والفضة ، واستعملوا العطور والمجوهرات ، وحول السكان كل المناسبات الى كرنفالات وحفلات للموسيقى والمسرح بشكل أشاع الانغماس فى ملذات الحياة والتحلل من القيود ، وجعلهم مثار غيرة مدن ايطالية منافسة.

– ولكن سياسة الحياد التقليدى لم تعد تثمر فى القرن الخامس عشر أمام توسع العثمانيين فى البلقان وشرق المتوسط واكتشاف البرتغاليين الطريق الى الشرق الاقصى بالدوران حول رأس الرجاء الصالح ، حتى خطط البنادقة دون جدوى لاقامة قناة السويس لاستعادة جزء من نفوذهم وثرواتهم التجارية المفقودة فى شرق المتوسط وكمعبر للتجارة بين الشرق والغرب ، بل واستحوذ الاتراك على بعض الجزر والقواعد الأرضية التابعة للبندقية ، واحتلوا الشام وشمال أفريقيا فى القرن السادس عشر.

– ورغم أن البنادقة استجابوا لخسارة النفوذ والثروة فى البداية بالمزيد من الفنون والموسيقى والمعمار ، فيما يبدو وكأنه اصرار على اسلوب حياة يعتزون به ، الأأن الافلاس المالى والسياسى والانحدار الخلقى للنبلاء والحكام بل ورجال الدين أنذاك أوقع البندقية فى القرن الثامن

عشر فى قبضة الامبراطورية النمساوية ثم تحت حكم نابليون والنمسا مجدداً، واللذين ضماها الى ايطاليا ، حتى تحررت الأخيرة من الحكم النمساوى فى القرن التاسع عشر.

– تاريخ البندقية نموذج للحضارات التى تنشأ فتية متطهرة ، لتقوى وتثرى ، ثم تتحلل وتنهار ولكن فينسيا اليوم يقطنها ستون ألفاً من الحرفيين والصيادين والفنانين والمعماريين والكتاب والدارسين ، هم ربع اجمالى سكان المنطقة التى امتدت فى البر ، ليتحول سكانه المزارعين وصغار الصناع الفقراء والحرفيين الى صناعات الملابس الراقية والنظارات والدراجات البخارية والتى حققت الرفاهية وتميزت بفضل مهارات العاملين وحسهم الحضارى التقليدي.

الخالة روز

سألها ضابط المرور عن رخصة القيادة وأوراق سيارتها وعن سبب تجاوزها السرعة القانونية على الطريق الدولى السريع الى بودابست بعد أن لاحظ من الرخصة أن سنها تجاوز الثمانين منذ أعوام ، ثم تركها لحالها حينما روت أنها تريد اللحاق بحفل الموسيقى الكلاسيكية فى العاصمة بعد يوم طويل قضته فى ترتيب المنزل وازالة الجليد من الحديقة وقضاء مشتروات الاسبوع فضلا عن استضافة اصدقاء من قريتها بمنزلها على حفل شاى غادروه متأخرين.

صرامة الضابط لم تمنعه من مسامحتها تقديرا لحيويتها ودوافعها عملت السيدة روز مدرسة فى مقتبل حياتها تكرس ايمانها بالمثاليات من خلال قدوة تقدمها لطلابها ، لها مبادىء ذكتها ثقافة رفيعة ومنحتها دوافع وطاقة ثبتت أقدامها فى حياة كفاح ، التقت فى بدايتها بشريك العمر ، محاسب أضافت روحه المرحة وحبه للحياة مزيدا من الحيوية على قيم مشتركة أعانتهما معا على مواجهة الصعوبات.

حين اقتحمت جيوش النازى المجر،جندت اجبارآ بعضآ من شبابها دون سن العشرين ، كان الزوج منهم ، نشأ فى المجر حتى أصبح أسيرا لدى الحلفاء فى معسكر فى بلجيكا التى تقبلت الأسرى كلاجئين بشرط العمل المضنى فى مناجمها ، سنوات شاقة أمضى منها أوقاتا طوالا تحت الأرض ، فآثر العودة الى وطنه ليكمل دراسته بعد أن صقلته المعاناة والعمل محاسبا ثم يتعرض أحيانا للاعتقال لشكوك حكومية دافعها الأساسى ماضيه العسكرى والعيش فى بلد حر لأعوام دون أن تعفو عنه السلطات أو تحتويه تقديرا لصغر سنه وتجربته والأشغال الشاقة الاضطرارية.

حياة مضطربة غير آمنة تواجه الزوجين فى مقتبل العمر ، حتى قامت ثورة 1956 فى المجر ضد الحكم الشيوعى وفتحت سلطاتها الحدود مع الغرب ، فجاءته مكالمة هاتفية من صديق من بلجيكا يعرض عليه المساعدة فى توطينه بها كلاجىء سياسى اذا أسرع بالسفر.

لم يكن هناك الكثير مما يمكن أن يفتقده فى المجر اذا رحل ، وكانت الهجرة تعبيرآ عن أمل يستحق مخاطرة محسوبة تعينه عليها صلابة جلبتها التجربة ومثل تستحق العناء والمثابرة.

فى الوطن الجديد لابأس من البدء من الصغر دون اعتبار لمؤهلات ، فالعمل اليدوى يحظى باحترام والجميع متساوون أمام القانون.

بدأ عاملا فى محطة وقود أصبح بالوقت مديرها ثم مالكها ، وعملت السيدة روز ممرضة فتوفرت للزوجين حياة تكفل الأساسيات ، بل وتتيح لروز فرصة تقديم الخدمة والرعاية والمحبة والمثل وأنجب الزوجان ثلاثة أطفال بثا فيهم القيم المشتركة وضرورة الكفاح من أجلها سعيا للنجاح واحترام الذات حتى أكملوا تعليمهم العالى ، ودفع الطموح أحدهم للهجرة لكندا والعمل فى التدريس الجامعى بعد أن اختبر أفكاره وأولوياته ومعتقداته من خلال سياحة الشباب لبلدان عديدة.

اطمأن الوالدان على مستقبل الأبناء ومع انتهاء عهد الشيوعية راودتهم أحلام الشباب من جديد بعد أن تعدى العمر السبعين ، العودة الى الوطن الحر والعيش فى منزل ريفى جميل فى أحضان دفء مشاعر مواطنيهم وحياة القرية الهادئة الأليفة ، الحياة الأمنة دون تسلط ومخاوف ، ولكن القدر لم يمهل الزوج وقتآ للاستمتاع بحلم حياته فتوفى بعد العودة بعامين ، لتبقى الخالة " موكى " كما يحب أن يسميها أصدقاء الدراسة فى لقاءاتهم السنوية تنعم بوحدتها ، كشخصية مستقلة واثقة وقديرة ، تحب القيم والحياة والثقافة ، وتعيش فى تناغم مع قريتها ، يناديها الجيران بالخالة تقديرا لحكمتها وسنها ومودتها والفتها ، تحرص على الاعتدال فى المأكل والجهد وتتمتع بنشاط جسمانى وعقلى ملحوظ ،لاتريد كثيرامن الآخرين والحياة ، فبخلاف زيارات موسمية من أبنائها المقيمين فى دول اخرى تملأها الحياة النشطة والمشاعر الدافئة واحترام الذات وسلام النفس بما يكفيها من سعادة واستغناء.

وداعا سواكوبمند

لم يكن الوداع سهلا،فطالما سحرتني تلك المدينة الحالمة علي شاطئ الاطلنطي، لم أكن أدري ما بها تحديدا، فليست الأولي علي محيط هادر، ومبانيها ليست الأكثر فخامة، وبرودة مياه المحيط قلما تسمح بالسباحة.

جاء سكني هذه المرة في فندق مطل علي المحيط،الشقة الفندقية كل ما فيها أبيض متسع و بسيط بخطوط مستقيمة، لكن الأجهزة الكاملة هي الأحدث في الأسواق، ستائر اليكترونية و أنوار تختار الوانها و الموسيقي حتي في الحمام، مزيج رائع من البساطة الواثقة و الرفاهية الأثرة.

تلك الليلة ذهبت للعشاء في فندق كلاسيكي راق إعتدت لعامين النزول فيه و مداعبة عامليه. تعمدت أن أصل مبكرا فأري المطعم خاويا ،كما لو كان شاهدا علي حياة مضت،فأجلس خلف نفس المنضدة،أتذكر ما حدث كل مرة. لاحظت أن ذاكرتي أنشط من المعتاد، فأنتبهت علي وقع عزف علي بيانو بدا أليفا .

هل معقولا أن تكون القطع الموسيقية التي لم تثر إهتمامي قبلا بهذا الجمال؟.كيف إستطاع العازف أن يرتجل فيبدع ؟ أن يجعل الموسيقي المثيرة للإنفعال حالمة داعية للتأمل ؟. كيف جاء الإختيار منسجما مبقيا علي حالة مزاجية محبة و هادئة ؟.و علي تجربة حياة جميلة تبدو و كأنها ذكريات طفولة تستدعيها إبتسامة و سكينة ؟.

ذهبت أحييه، فوجدته ذلك العازف الذي إعتقدت أنه هاجر لغير رجعة. شكرت له أربعة أعوام من الإستمتاع بتميز فني إستمر بعد أن تعدي عمره الثمانين. وعلمت انه عازف عالمي مخضرم.لكن السر فيما أري هو شعور سامي دافع،،كن جميلا تري الوجود جميلا.

قد يعجبك تميز و فخامة الفندق العريق،لكن أكثر ما يبقي في ذاكرتك الإنفعال الذي أثاره عازف حساس دارس ومجرب.و أنا أودع مدير الفندق الألماني صارحني أنه جاء سائحا منذ سنوات،لكن نفس تلك الجاذبية الساحرة دفعته للبقاء و العمل في المدينة التي سرعان ما أشعرته أنها الإختيار الأمثل.

سماء برتقالية وقت الغروب، و أمواج أصبحت هادئة،كما لو كانت فرغت من مهمتها.وداع لطيف يشبه عازف البيانو،و كأن الوداع مثل الموت،قبول و تسليم،و شكر علي نعمة حياة صغري أو مرحلة حياة، أهداها قدر غامض حكيم،يبتسم صابرا إن إعتقدت أنها صدفة.

بعد جولة في شوارع المشاة و مقاهي و حوانيت المدينة،إمتد الوداع وداعا لكل شئ، حتي البحر و الحيوان والطير،ففي رحلة بحرية في الميناء القريب،القارب السريع يختصر الزمن،و الطير يلاحقه. سرب من النورس و موكب من البجع.التقط الصور لتحيي الذكريات. يصعد "سبوتي" كلب البحر زاحفا علي سطح القارب، فيستقر علي رجلي يودعني بالإنابة عن كائنات البحر، بنظرة تدليل و حبة وود.

سواكوبموند ليست صدفة بل نتيجة متوقعة،و ليست حلما بل حقيقة، يتسع فيها العيش للجميع، رغد السياحة و التجارة لسكانها البيض، و أجور الفنادق و المناجم و أعمال البحر و المواني و المصانع المجزية للعمال و الفنيين السمر. هناك دافع للكل للحفاظ علي حياة هادئة وديعة مريحة بل و أمنة، حتي أن الجيران يساعدون الشرطة اليقظة في مكافحة الجريمة بالتضامن فيما بينهم، تضامن يفترض صداقة و إنفتاحا ووداً موفورين، فلا عجب أن يتملك من الزائر شعوره بالراحة و السلام .

البحر يغسل الأحزان،و الناس يملأون النفس بالأمل و الدعة و الإنطلاق، و المدينة تسكن القلوب و تخلد الذكريات.

رحلة عبر الزمان

– هل صحيح أن التاريخ يعيد نفسه؟ فلو صح ذلك، و إذا كان التاريخ من صنع البشر، فلماذا لا نتعلم من أخطاء الأولين؟ ندرس التاريخ منذ نعومة أظفارنا، لكنه يبدو للوهلة الأولي، كمجموعة متوالية من الأحداث و الأعوام و الأشخاص و الحروب و الثورات و الإنجازات، فكيف يمكننا أن نستوعب دروسه؟

– إن التاريخ لا يكون معلما إلا إذا وقر في الإدراك و الشعور، و شغف به الوجدان، فأصبح حقيقة معاشة، تستغرق حواسنا و مشاعرنا، بألامه و أماله، بكوارثه و إنتصاراته. و هذا يبدو مما تهدف إليه العروض السينمائية و البانوراما و مغامرات المحاكاة التي تنقلك الي بؤرة الأحداث، لتصبح جزءا منها عبر الزمان.

– و في شوارع المشاة في قلب مدينة فيينا، حيث يتجول السائحون منبهرين بروعة مبانيها الكلاسيكية، و بمعمار كنائسها التاريخية و تماثيلها، و المحال و المطاعم الأنيقة، يستمتعون حينا الي من يعزف بألته موسيقي هادئة ترتبط بالمشهد و الذاكرة، هناك تجد في شارع جانبي عرضا حيا للتاريخ و الفن و الثقافة في ساعة واحدة.

– عبر السلالم تنتقل الي شبكة الأنفاق المقامة للوقاية من الحروب، لتدخل الي صالة محاكاة لأهم أحداث تاريخ أمبراطورية بين الأعظم في أوروبا حتي اوائل القرن العشرين. فمن فوق مقعد موثق بك، يتحرك أمام شاشة عرض، تأخذك الة الزمن،كما لوكنت في رحلة خارج الجسد من عصر الديناصورات، تكاد أرجلهم تطأك، وصرخاتهم تملأ أذانك، الي كتائب جيوش الرومان، التي اسست معسكر فيندابونا مكان فيينا الحالية في القرن الاول الميلادي لتحمي أطراف أمبراطوريتهم من غزاة برابرة الشمال، ثم تنقلك من وقع أقدامهم عبر الفضاء الي مراحل بناء الكاتدرائية منذ القرن الخامس عشر وسط جحافل الفئران ووباء الطاعون، فتشعرك مجسات أرضية بالفئران تلامسك، و مؤثرات حركية صوتية بالرياح تعصف برأسك أعلي البناء، لتجد الحمائم،تطير حولك الي القرنين السادس عشر و السابع عشر، لتري جموع العثمانيين مقبلة بصيحات الحرب الي أسوار المدينة.

– بحواس تتنيقظ و تتاهب، تدلف الي قاعة تحكي تاريخ أسرة الهابسبورج التي أسست الأمبراطورية النمساوية المجرية علي أنقاض الأمبراطورية الرومانية المقدسة في العصور

الوسطي، فتعرف أن فكرة بسيطة و بارعة غيرت تاريخ أوروبا و العالم، إبتدعها مؤسس تلك الأسرة من اصل سويسري. إذ طرأ علي ذهنه أن يقيم الأمبراطورية، و التي شملت فيما بعد مناطق من ايطاليا و كرواتيا و بوهيميا و المجر و رومانيا و بلغاريا و أوكرانيا و بلجيكا و إسبانيا بمستعمراتها في أمريكا اللاتينية، من خلال الزيجات الملكية بدلا من الحروب. و تتعرف من خلال تماثيل متحركة متحدثة لأهم أباطرة تلك الأسرة و الحوار بينها علي ابرز ماثرهم علي الأمبراطورية، فهذه ماريا تيريزيا التي إهتمت بالتعليم و الثقافة و الفن و حررت العبيد رغم أنها كانت والدة لستة عشر طفلا، و ذلك الأمبراطور فرانس يوسف الذي حكم خمسة و ستين عاما في القرن التاسع عشر، ليشهد عصره أوج عظمة الأمبراطورية و بناء فيينا الحديثة و أيضا تحول الامبراطورية الي كونفيدرالية يتحقق فيها للمجر و توابعها قدر من الأستقلالية بتأثير من اصدقاء زوجته الفاتنة سيسي و ثورات الاقاليم الي أن توفاه الله عام 1916. و فقدت النمسا أغلب اراضيها في الحرب العالمية الأولي، و أختار النمساويون بعدها النظام الجمهوري.

– و في قاعة أخري تري مشهدا لحوار بين تمثالين لأهم إثنين من موسيقاري النمسا، حيث يتفاخر كل من موتسارت و يوهان شتراوس الإبن بمؤلفاته و تأثيرها، و يحيطونك جالسا في حلقة متحركة بألوان من الموسيقي الكلاسيكية و الفالس،وعروض شاشات، و كأنك ترقص علي وقعه في قصور الملوك و النبلاء بأزيائهم الثرية البهيجة.

– تعود بعدها الي الأنفاق بفتحات التهوية لتشاهد عرضا لترحيب النمساويين بدخول هتلر بلادهم، ليجعلها المحافظة الشرقية للنازي، ثم تعيش في تلك المخابئ أصوات دمار غارات الحرب العالمية الثانية، حينما خرج السكان من مخابئهم، ليجدوا منازلهم أنقاضا، و بلادهم محتلة، و مدينتهم التي كانت درة الأمبراطورية مقسمة، لأحياء يديرها السوفيت، و أخري الأمريكيون، أو البريطانيون، و الفرنسيون، حتي إعلان إستقلال و حياد النمسا منذ منتصف الخمسينات لحين انضمامها لحلف الناتو و الاتحاد الاوروبي هذا القرن.

– تاريخ مرير هو بمنحنياته، و لكنك سائحا كنت أم محليا جئت لتتمتع بما أختيرت لأعوام متوالية أحلي مدن العالم. فلا باس إذن من جولة في معالمها الرائعة. ففي قاعة عرض تشعر و كأنك تستقل عربة الفياكر التاريخية الفخمة، يطير بها حصانان فوق متاحف و قصور و نافورات و ملاهي و كنائس و حدائق و ميادين و أروقة، و من فوق سنابك الخيل تتقارب و تتباعد

المعالم ،لتشعر بالنشوة و الحرية و الإنطلاق و الإدراك معا.

– هي جولة تجعل التاريخ حاضرا، و تجعل الحاضر أثرا و مشهدا للتاريخ. و الأهم أن وجدانك قد عاش، وعقلك قد إستوعب، وحسك قد إنغمر، لتخرج من التاريخ بدروسه، و لتتمتع بالحاضر بفهم و تذوق، ولتخطط للمستقبل برؤية و حكمة.

فيري

خارجا لتوي من تجول بالغابة القريبة ،ليس معي الا عصياني النوردية التي استعملها كارتكاز لتمارين رياضية اضافية و جهاز موسيقي محمول يسري عني ، فتتسارع خطواتي احيانا مع نغماته انغماسا حرا ممتعا، وجدت رجلا يثبت نظره علي عن بعد، اقتربت لأح...بيه فضولا مني عن سبب اهتمامه. ذكر فيري انه يستعمل عصا وحيدة لأنه لا يستطيع المشي دونها،فابلغته ان الدنيا تسير بنا جميعا في نفس المسار ، و ان كل ما افعله هو محاولة تأجيل النهاية المحتومة. بدأ الفضول المتبادل يؤتي ثماره بتعارفنا... فيري يعيش بسنواته السبعة و الثمانين وحيدا بعد ان قضت زوجته نحبها في نهاية زواج استمر تسعة و ستين عاما، و أثمر ابنتين تعمل احدهمامدرسة و الاخري ممرضة، تقطنان قريبا و تعدان له وجبات الغذاء يوميا، و يزور قبر الزوجة كثيرا يجتر الذكريات. لكن حياته في مقتبل الشباب لم تكن بذلك الهدوء،، كان سائقا لعربة نقل يجرها حصان في الحرب العالمية الثانية حين أسره الألمان و أخذوه يعمل حرفيا لدي قوات النازي عنوة، لكن الحلفاء المنتصرين اسروه و سجنوه ثم أحالوه الي المجر الشيوعية أنذاك حيث سجنته للمرة الثانية سنوات. ليخرج بعدها و يعمل بالتجارة ليعول أسرته الصغيرة. احيانا نظن اننا نستمع الي من نعدهم كبارا عطفا و مواساة، لكن و إن إستطعنا ان نخفف وحدتهم فنحن في الحقيقة مستفيدون، نمارس فضيلة الاستماع، و حكمة التأمل، نعرف ان الدنيا تصعد و تهبط بنا،واذا كان علينا ان نستمتع بما تمنحه، فلنعلم انها منحة مؤقتة، علينا ان تكون اقدامنا ثابتة في الارض مهما تقلبت احوالها، نتواضع لانفسنا و لله، و نكون فطرتنا الاصيلة ،لنعيش حياتنا و ليس حياة الاخرين باقل الاقنعة قدر المستطاع، فالسعادة الحقيقة ان تكون نفسك ناجحا سعيدا.. فيري ذكر ان التواصل صنع يومه و اننا سنتزاور،، و انا اشعر بعرفان لله لما كان في حياتي و سعيد بالتعلم من تجارب الاخرين قبل فوات الاوان.

سفير/ د.هادي التونسي

حقوق النشر خاصة بالمؤلف

د.هادي التونسي

سفير سابق بوزارة الخارجية المصرية

ومكتشف العلاج الفوري لتطوير الشخصية